

غرائب الملوك ودسائس البنوك

مجيد طوبيا

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ة الثقافية
٣٣

غرائب الملوك ودسائس البنوك

مجيد طوبيا



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٦

غرائب الملوك ودسائس البنوك

حكايات حول قناة السويس تتناول :
السلاطين المساطيل وهجوم الأساطيل
وبعض الأعاجيب لأصحاب الجلاليب .

١ -

حكايات أولية عن بعض ذئاب الماضي

يحكى أنه فى سالف العصر والأوان ، وبالتحديد فى القرن الماضى من الزمان ، وبعد أن استفاقت أوروبا من ظلمات الجهل اللعين وحررت عقلها من سطوة تجار الدين .. يحكى أن علماء الفرنجة كانوا قـــد نشطوا يدرسون الانسان والأرض والسماء ، لدرجة أن أحـــد هؤلاء اكتشف أن للبخار قوة ، وان هذه القوة يمكنها أن تدير آلة ، وأن هذه الآلة يمكنها أن تنتج سلعا وتحرك القطارات وتسير السفن .. فحدثت تلك الثورة الصناعية

التى كانت طفرة للانسان لم تكن معروفة من قبل ، وقوة عجيبة تضاف اليه ..

ويحكى أيضا أن تلك الجزر الجرداء المسماة انجلترا كانت هى أسبق الدول فى هذا المضمار ، مما ضاعف من انتاجها السلعى بحيث فاق بكثير متطلبات سوقها المحلى، فصار لزاما عليها أن تبحث عن أسواق أجنبية تبيع لها الفائض وتستجلب منها الخامات الأولية اللازمة لصناعاتها ..

ومن أجل هذا الهدف خرجت بوارج الانجليز الى كل بحر وكل محيط ، لتلقى مراسيها على شواطىء الدول الآمنة والنائمة فى نعاس التخلف .. يبدأ الأمر بالتجارة البريئة وينتهى بالاستعمار الصريح ، فتسللت الى شبه القارة الهندية بشركة اسمها شركة الهند الشرقية ثم حولتها بسطوة السلاح الى درة المستعمرات فى تاج الامبراطورية البريطانية ، التى صارت لا تغرب عنها الشمس لانتشار أراضيها بين الغرب والشرق ..

ويحكى أيضا أن الذئب الانجليزى نظر الى الشرق

الأوسط ، فرأى مصر واقعة على طريقه المؤدى الى درته الهندية ، ورآها تزرع القطن اللازم لمصانع نسيجه ، فطمع فيها وحدث نفسه قائلا :

ـ هذه ولاية عثمانية ، تدفع الجزية للسلطان التركى المهيمن باسم الدين ، مع أنه يقتل رجالها ويسبى نساءها وصبيانها ، وهو فى الحقيقة لم يعد سوى عقل مشلول ، لم يبزغ له علم مثل علمى ولم تتطور له صناعة مثل صناعتى ، فهو ذئب مريض واهن القوى متساقط الأنياب وقد قربت نهايته ..

ثم كشر الذئب الانجليزى عن أنيابه وأكمل حديثه لنفسه :

ـ عندما يجىء الوقت المناسب سوف أنقض على هذه الدولة المصرية كما انقضضت من قبل على الدولة الهندية ..

ومن حسن حظه أن تركيا كانت فى حرب طاحنة وطويلة مع روسيا القيصرية أنهكت قواهما معا ، وان أمريكا كانت منشغلة بمشاكلها الداخلية ، فلم يعد بالغابة

الأرضية من يناوئه في الشرق الأوسط سوى فرنسا ..

ويحكى أيضا أن نابليون الفرنسى كان قد جاء قبل ذلك — وهو فى الثامنة والعشرين من عمره — الى مصر يريد غزوها .. وان حكومة باريس كانت قد وجهت اليه ستة توجيهات سرية ، كان ثالثها ينص على أن يقوم: « بشق برزخ السويس واتخاذ الوسائل الضرورية لضمان استيلاء الجمهورية الفرنسية استيلاء كاملا على البحر الأحمر وامتلاكه » ..

وكانت انجلترا قد استولت على رأس الرجاء الصالح فاتحة بذلك طريقا جديدا سهلا ومأمونا الى الهند درة التاج البريطانى .. ومن هنا جاء التفكير الفرنسى بالاستيلاء على مصر لتتخذ منها قاعدة تهدد بها بريطانيا فى الهند ، فمهما كانت قوة البوارج الانجليزية فان دورانها حول القارة الافريقية يجعلها غير قادرة على كبح جماح البوارج الفرنسية الزاحفة الى الهند عن طريق البحر الأحمر ..

ويروى عن المهندسين الفرنسيين القادمين مع الحملة

أنهم لم يضيعوا وقتهم ، بل بدأوا فى يناير من نفس عام الحملة ــ وهو عام ١٧٩٩ ــ فى دراسة تنفيذ التوجيه الثالث السرى لحكومتهم ، ومع نهاية نفس العـــام تقدموا بتقريرهم الى نابليــــون ذاكرين استحالة حفر البرزخ المطلوب ؛ لاعتقادهم أن مستوى المياه فى البحر الأحمر يرتفع عن مستواه فى البحر الأبيض المتوســط بنحو ٣٣ قدما .. وكانت غلطة منهم سببها عدم دقــة أجهزة قياسهم فتأجل حفر القناة ..

وانتهى الأمر بالحملة كلها الى الفشل تحت ضغط مقاومة أهل مصر ومعارضة انجلترا ، فانسحب نابليــون بونابرت من مصر ، بعد أن تنبـــه الانجليز الى نواياه فسارعوا باحتلال جزر البحرين فى الخليج العربى وعدن ومسقط والكويت وقطر وشواطىء عمـــان فيما ســموه بالمحميات البريطانية عند مدخل البحر الأحمر من أسفله .. ثم راحوا يتحينون الفرص للانقضاض على أعلاه ، أى على مصر التى قال عنها نابليون : « مصر لا توجد بلاد مثلها تتيسر لحكومتها وسائل المراقبة والسيطرة عن كثب بواسطة النيل » ..

٢ -

فصل من حكاية نقيب الأشراف ..
والألبانى .. والباب المفتوح ..

عندما غادر الفرنسيون مصر عادت فلول المماليك تدير البلاد لحساب الباب العالى العثمانى .. وكـان هؤلاء فى الأصل عبيدا يمتلكون بالمال ويسـتخدمون كحرس للسلاطين ، وكانوا خليطا من الاتراك والجراكسة والمغول والروم والقوقاز يشـتريهم السادة بقصـد استمرارهم فى حكم البلاد عن طـريق حكومة أقلية عسكرية .. وعلى هذا فقد كانوا أرقاء بحكم النشـأة والمصدر ، متعطشين للدماء بحكم التربية والاحتراف..

فلما زاد عـــددهم اســـتولوا على الحكم ، وراحوا يستأسدون على الناس المسالمين بالنهب والرشوة والجلد والخوزقة حتى تناقص تعداد السكان بسببهم وبسبب الأوبئة والمجاعات الى نحو المليـــونين والنصف فقط ، وكانوا يقدرون أيام الفراعنة بنحو سبعة ملايين تقريبا .

وعند أول محك حقيقي للقوة انهار هؤلاء المماليك وتشتتوا أمام الغزو العثمانى على يد سليم التركى ، ثم دحر نابليون بقاياهم بحملته الفـرنسية ، فلما انسحبت عادت فلولهم تريد أن تبطش من جديد .. لكن الظروف كانت قد تغيرت ، ومقاومة الناس للفرنسيين كانت قـد أعادت الثقة الى نفوسهم فناوؤا المماليك ..

ويحكى أنه كان بالقاهرة رجل تركى اسمه محمـد على ، من مواليد مرقأ « قوله » التابع الآن لليونان ، كان يتزعم جيشا من مواطنيه الألبانيين تعــــداده عشرة آلاف رجل ، وكان أميا لكنه داهية ودمويا من غير رعونة أو اندفاع ، وكان قد خدع المصريين بالتظاهر بحبهم وبالدفاع عن مصالحهم .. لذلك توجه اليه النـــاس

والمشايخ بزعامة السيد عمـــر مكرم نقيب الأشراف ، وطلبوا منه أن يكون واليا عليهم بشروطهم ، وكان ذلك فى ١٣ مايو عام ١٨٠٥ عنـدما ارسلوا الى الـوالى التركى قرارهم بعزله ، فرفض قائلا :

ـ أنا معين من قبل سلطان الدولة العثمانية ، فلا أعزل بأمر الفلاحين المصريين ..

لكن عمر مكرم رد قائلا :

ـ ان الطاعة المفروضة لأولى الأمر معناها الطاعة للعلماء والسلطان العادل ، وجرت العادة أن أهل البـلد يعزلون الولاة الظلمة ، حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يخلعونه ويعزلونه ..

وتم للناس فرض محمد على حاكما لمصر ، الأمر الذى رضخ له العثمانيون على مضض ، وصار محمـد على هو الخلف المنطقى لنابليون ، وكان متأثرا به تأثرا شديدا .. واستهل الألبانى حكمه بأن أجهز على المماليك جميعهم فى مذبحة القلعة الشهيرة ، ثم استدار ينكل

بقوى الشعب ويشترى رضا الكبراء بالهبات الكبيرة ، حتى استتب له الأمر حاكما مطلق اليد ..

وعلى الفور أعلن احتكاره لكافة الأطيان ، وراح يجهز جيشا قويا من الفلاحين أنشأ له المصانع اللازمة ، وأرسل العديد من البعثات الى الخارج فلمع رفاعة الطهطاوى .. وبعد أن تم للالبانى كل ذلك أعلن الحرب على الباب العالى ، وحررت الجيوش المصرية الشام بقيادة ابنه بالتبنى ابراهيم باشا ــ صاحب تمثال ميدان الأوبرا ــ ثم راحت تدق أبواب العاصمة العثمانية نفسها ، وعند ذاك تدخل الذئب الانجليزى مع حلفائه وحاربوا جيش مصر وكسروه ، فانكمش محمد على فى ولايته على مصر راضخا لسيادة السلطان التركى الاسمية ولدفع الجزية السنوية له .. وقد سر من ذلك الذئب الانجليزى وحدث نفسه قائلا :

ــ هأنذا أفهمت السلطان التركى أنه مدين ببقائه لى ، وأفهمت ذلك الألبانى الأمى الطموح أننى لا أريد فى مصر دولة قوية مستقلة ..

ومن هنا كان محمد على يرفض فكرة القناة حتى لا يعطى الأوربيين مطمعا جديدا ـ وكانت القياسات الجديدة قد اثبتت خطأ علماء الحملة النابليونية ـ وعندما حاولت مجموعة المهندسين الفرنسيين المشتركين فى بناء القناطر الخيرية اقناعه بحفر القناة رد قائلا :

ـ انى لو فتحت القناة لخلقت لمصر بوسفورا كبسفور الدولة العليا (يقصد تركيا) •• وكما أن البوسفور سبب فى مشاكلها فان بلادى المطموع فيها أصلا سوف تصبح بسبب القنال مرسحا للمطامع السيئة ••

وعلى غراره سار خلفاؤه ابراهيم وعباس الذى كان يكره الأجانب •• والى أن جاء ثالث الأمراء الباشوات واسمه سعيد وكان يحب الأجانب •• وكان احتكار الدولة للتجارة والصناعة والزراعة قد سارع الى الانهيار •• وكان الذئب الانجليزى قد فرض ما سماه بسياسة الباب المفتوح ، ومعناه أن تشترى دولة مغلوبة على أمرها مثل مصر بضائعه بأعلى الأسعار

وأن تبيعه قطنها الخام بأرخص الأســـعار ، استمرارا لاستراتيجية : التجارة فى البدء ثم الاستعمار كنتيجة..

ولم يقاوم سعيد باشا ، وفتح الباب على مصراعيه.

٣ -

فصل من حكاية ابن القنصل ..
والأمير وبداية القـــروض ..

وكان الأمير سعيد فى صباه سمين البدن ، وكان أبوه يكره السمنة فمنعه من أكل النشويات ، لكنه كان مغرما بالمكرونة ، فكان يهرع الى القنصلية الفرنسية حيث يلتهم الأطباق الشهية منها مع نجل القنصل الذى يدعى « فرديناند ديلسبس » .. ثم فرق الزمن بينهما بعــودة الفرنسى الى دياره ..

وعندما تولى الأمير الحكم ، التأم شمل الصديقين مرة أخرى .. وفى رحلة صيد فى الصحراء الغربية عرض

مشروعه بحفر قناة السويس على سعيد باشا ، الذى لم يشأ أن يكسر بخاطر صاحبه فوافق ، وأصدر المرسوم اللازم لهذا بديباجة هى أقرب الى العشق منها الى الود قال فيها : « الى صديقى المخلص الكريم المنبت ، العالى المقام ، المسيو فرديناند ديلسبس •• وقد خولناه بموجب هذه الوثيقة السلطة التامة لتأليف شركة عامة لحفر برزخ السويس واستغلال القناة التى ستصل بين البحرين الأبيض والأحمر •• »

وبموجب هذا المرسوم قدم سعيد الى هذه الشركة جميع الأراضى التى تمر بها القناة والتى على جانبيها مجانا ، مع اعفائها من كافة الرسوم الجمركية والعوايد ، ومنحها حق استخراج ما يلزمها من مواد البناء من المحاجر الأميرية مجانا ، وانفرادها بدخل القناة لمدة ٩٩ سنة ، كما منحها حق حفر ترعة مياه حلوة من فرع النيل الى منطقة القناة للارتواء منها دون مقابل ، بل وأضاف أنه اذا أراد أصحاب الأطيان المجاورة لهذه الترعة رى أراضيهم منها فعليهم أن يدفعوا ثمن هذه المياه للشركة الأجنبية ••

كل هذه الامتيازات أعطاها سعيد لصديقه دون مقابل ، وربما من أجل خاطر صداقة المكرونة اللذيذة ..
ولم يكتف بهذا ، بل عاد يلحق المرسوم السابق بمرسوم آخر تتعهد فيه مصر « بتقديم العمال اللازمين لحفر القناة طبقا لحاجة العمل » .. وكان معنى هذا تسخير عشرين ألف فلاح فى الحفر مقابل مبالغ هزيلة لم تدفع لهم على الاطلاق ، وهذا يعنى بالتالى حرمان الأراضى الزراعية من جهد ستين ألف عامل ، اذ كان عشرون ألفا يعملون على الدوام فى حفر القناة بينما عشرون ألفا غيرهم يجهزون للحلول محلهم ، وعشرون ألفا ثالثة انتهت مدتهم وهم على أهبة العودة وقد انهكتهم سخرة السلاسل والكرابيج ، وحكى أنهم كانوا يظلون عدة أسابيع فى قراهم وهم غير قادرين على العمل ، وان المئات منهم تساقطوا قتلى تحت ضرب السياط وضربة الشمس والأوبئة ، فكانوا يدفنونهم من قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة ..

ولم يكن هذا هو كل ما قدمته مصر ، فعندما طرح ديلسبس أسهم الشركة للبيع تبقى منها ما يقرب من

خمسيها ، وأصبح المشروع كله مهددا بالالغاء ، وعند ذلك سارع الأمير الى انقاذ شركة ابن القنصل فقام بشراء هذه الأسهم على حساب الخزانة المصرية ، ولم يكن فيها هذا المبلغ فاستدانه على أن يسدده على أقساط ذات فوائد مركبة عالية ، عجز عن سدادها .. فتكالب عليه الماليون الأجانب يتفننون فى سلب المال المصرى بأساليب غاية فى العجب ، الى درجة أنه ذات يوم دخل أحدهم على سعيد باشا وكانت نافذة القاعة مفتوحة ، فصاح الوالى فى خادمه :

ـ أغلق هذا الشباك بسرعة فلو أصيب هذا السيد بزكام فلسوف يطالبنى بتعويض لا يقل عن عشرة آلاف فرنك !!

ومات سعيد الذى أحب الأجانب وقد ترك البلاد مدانة لهم بمبلغ كبير يزيد عن اجمالى ايرادات الميزانية العامة !! .. غير أن فى عهده سمح بترقية الضباط المصريين ، كى يحد من عربدة الضباط الأتراك والشراكسة .. وبهذا تمكن ضابط صغير اسمه أحمد

عرابى من الوصول الى رتبة قائمقام وكان قـــد دخل الجيش برتبة نفر عادى ..

وجاء من بعده اسماعيل باشا الذى كان أكثر منه ســخاء ..

٤ -
فصـــل من حكاية « خيفـــا »
الــذى دفـــع الرشـــوة ..

أول ما فكر فيه اسماعيل هو أن يشترى لنفسه من الباب العالى لقبا فخما يميزه عن باقى الولاة الآخرين .. وفى البداية أراد أن يلقب نفسه بالعزيز لكن عقبة بسيطة حالت دون ذلك ، اذ كان السلطان التركى نفسه يسمى عبد العزيز فكيف يلقب أحد ولاته بالعزيز ؟! .. وأخيرا عثر على أمنيته فى كلمة خديوى ، وهى صفة مشتقة من كلمة « خيفا » وهى اسم فارسى من اسماء الله ، تعنى الربانى أو الالهى .. ولما كان الأتراك

والمصريون لا يعرفون الفارسية فقد كان للقب الجديد وقع السحر لما فيه من غموض •• ولم يفز اسماعيل به بالمجان ، بل برشاوى ضخمة وزعت على السلطان وحاشيته ، منها يختا بخاريا عالى الثمن و « طاقما » للمائدة مرصعا بالماس ومبلغا كبيرا من المال •• بالاضافة الى زيادة الجزية السنوية المفروضة على مصر مقابل أن تصبح هذه الخديوية وراثة لأولاده من بعده !

ولعل تشبثه بهذا اللقب الوهمى يلقى بعض الأضواء على شخصيته •• وكان غربى الثقافة مبهورا بالحضارة الأوربية ، ومبذرا انهمك فى حلات باذخة الى بلدان الغرب ، وفي حشد بيوته بالنساء والعبيد والجواهر والتحف والأثاث المستورد من فرنسا •• كما اندفع فى غزوات لا طائل من ورائها وفى مشاريع كثيرة دون أن يكون لديه المال الكافى لها فنفذ معظمها بالاستدانة ، مما ضاعف من قيمة القروض ومن فوائدها ، فتسبب بعد زمن قليل من توليه الحكم فى القفز بالدين القومى المصري من ثلاثة ملايين جنيه الى ما يقرب من المائة مليون وهو مبلغ ضخم فى ذلك العصر •

ومع قرب افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر ١٨٧٦ اتسمت استعداداته بالاسراف الشديد ، فقــد جعل المهرجانات والاحتفالات تستمر أربعــة أيام فى العاصمة وعلى القناة ذاتها ، كأنها ليالى من ألف ليلة وليلة ٠٠ وفى القاهرة أنشأ أول دار للاوبرا فى الشرق وأفريقيا ، وعهد الى الموسيقى الايطالى الشهير « فيردى » بوضع «أوبرا عايده » لحفلة الافتتاح (وان كانت الأوبرا لم تعــرض بمصر الا فيما بعد لظروف متعلقة بفيردى) ٠٠ كمـا أمر بتسليط أنوار الماغنســيوم البراقة على الأهرامات ٠٠ وأقام فى بورسعيد ثلاثة سرادقات، واحد لأرقى الضيوف والثانى لعلماء المسلمين والثالث للمسيحيين ٠٠ وأعــد ذخيرة من الصواريخ النارية لتحية الافتتاح ، واستدعى من فرنسا وايطاليا ٥٠٠ طبـــاخ و ١٠٠٠ خادم لتقديم الأطعمة لستة آلاف مدعو وفرت لهم أجود أنواع الخمور وأغلى الأطعمة دون حســاب ٠٠ وكان من بينهم معظم أباطرة وملوك وأمراء أوروبا ونبلائها وسفرائها، الىجانب قائمة طويلة من مراسلى صـــحف خاملة الذكــر كان يشتريهم من أجل مدحه باللغات الأجنبية ٠٠ وفى نفس

الوقت تجاهل دعوة السلطان التركى اذ كان ينوى اعلان انفصاله عنه لكن الظروف الدولية لم تساعده ..

وفى الصباح المحدد للافتتاح بارك القناة رجال الدين المسلمين والأرثوذكس اليونان والأقباط الكاثوليك .. وأطلقت الأعيرة النارية والصواريخ .. وعزفت عشرون فرقة موسيقية عسكرية .. وخلال دخان البارود افتتحت الامبراطورة الفرنسية «أوجينى» من فوق سطح اليخت الامبراطورى ايجل ـ أى النسر ـ القناة .. وتبعها اسماعيل على يخته «المحروسة» وسيفه الملكى يتألق بالجواهر ، ثم امبراطور النمسا وعائلته ، فخمس مدرعات انجليزية وسفينة حربية روسية وحوالى ٧٠ سفينة بخارية وشراعية ..

ومن ميزانية الدولة وبمزيد من القروض استصلح أكثر من مليون فدان أضافها الى ممتلكاته الخاصة بحيث صار يملك خمس مساحة الأرض المنزرعة كلها ، وكى يستصلح هذه الأرض سخر الفلاحين بالكرابيج فى حفر الترع وفى مد الخطوط الحديدية التى زادت من ٢٤٦

الى ٩٦٠ ميلا كى يتيسر نقـــل محاصيله الى موانىء التصدير . وفى مد شبكات التلغراف كى يتحكم فى ادارة هذه المساحات الشاسعة .. ثم أدخل زراعة القصب فى أراضيه وأنشأ من أجلها مصانع السكر ..

غير أنه بالاضافة الى ما سبق شيد أحواض السفن والمنارات على شاطىء البحرين الأبيض والأحمر ، وسير خطوط الملاحة ، وقام بتوسيع شوارع القاهرة وتزيينها واقامة المتنزهات بها ، ووضع نظاما ثابتا للانارة ونقـــل المياه .. وقفز بعدد المدارس الحـــديثة من ١٨٥ الى ٤٨٧١ مدرســة ..

وقد نظر الذئب الانجليزى بعين العطف الى جميع الانشاءات المتعلقة بالرى والزراعة وحدث نفسه قائلا :

ـ لطيف من هذا الخـــديوى أن يهيىء مصر لى كمزرعة خصوب ميسرة المواصلات ، وسوف أعمل على توريطه فى المزيد من الديون حتى أفوز بكل هذا .

لذلك لم يكن بمســـتغرب أن المرابين الانجليز والفرنسيين كانوا يتزلفون الى اسماعيل ويتوسلون اليه

كى يقترض منهم المال بأعلى الفوائد المركبة ، وانزلق هو الى الحد الذى عجز فيه عن سدادها •• وعند ذاك انقلبوا الى وحوش تطالب بربابها فى وقاحة أرغمته الى أن يبيع لانجلترا نصيب مصر من أسهم القناة والبالغ نسبتها خمسى مجموع الأسهم ، وبسعر ينقص عن سعرها القديم وكانت وقت البيع تزيد عنه بكثير ، فى صفقة جائرة سماها رئيس الوزراء الانجليزى بصفقة العصر !

ومنذ ذلك الوقت اعتبر الانجليز أن قناة السويس ملكا لهم ، وان من حقهم احتلال الأرض التى تمر بها ، وراحوا يجهزون لذلك !! •• ولم يتبق لمصر من «مولد» القناة سوى نسبة ١٥ فى المائة من صافى الدخل بعد الافتتاح ، فهل يحافظ صاحب السمو الخديوى اسماعيل باشا عليها ؟••

٥ -
فصل من حكاية تجـــارة العبيد ومن حفـــلة الرقص التنـــكرية

فى ذلك العهـــد كانت تجارة الرقيق تجارة رائجة، وكانت لها أسواق ثابتة ومواعيد محددة ، وعرف متفق عليه وتقاليد مصانة .. وكانوا يبيعون النساء والصبية، المرأة البيضاء والصبى الأبيض أعلى سعرا من الجارية السوداء ، والبضاعة مضمونة لمدة ثمانية أيام ، ومن حق العميل أن يعيد من اشتراها فى خلال مدة الضمان ان اكتشف عيبا ما فيها .. وكان النخاسون ــ أى تجــار العبيد ــ يجلبون هؤلاء من شرق أوروبا وبعض مناطق

آسيا ومن جنوب السودان والمناطق المتاخمة •• وكانت معظم المناطق الأخيرة تعد مجهولة بالنسبة لخرائط العالم المتمدين ، كانت أفريقيا هى القارة السوداء وأرض الغموض والسحر والتوحش والأوبئة ••

ولما كان تدوين هذه الخرائط يسهل على هذا « العالم المتمدين » احتلال ارض السحر والغموض هذه الغنية بالخامات البكر ، لذلك فقد شجعت الحكومة الانجليزية رحالتها المغامرين على التوغل فى أحراش جنوب السودان لاكتشاف منابع النيل •• وكان من بين هؤلاء رجلا اسمه « صمويل بيكر » اكتشف بحيرة سماها بحيرة « ألبرت » جعلت صيته يبلغ أسماع الدنيا ••

وكان تاجر الرقيق يجمع من حوله ــ على حد قول بيكر ــ أكثر من مائة رجل من الأعراب والأوباش الفارين من العدالة ، ويزودهم بالبنادق ، ثم يشترى بعض الخرز والزجاج ويتوغل بهم بالمراكب قاصدا الى أحد رؤساء القبائل الزنوج الذى يكون قد عقد معه رابطة صداقة ،

وبعد أن يهديه الخرز والزجاج ، وبعد أن يعرف الرجل مدى قوة بنادقهم على الفتك ، يدلهم على الطـريق الى قبيلة أخرى مجاورة يكون على عداوة معها •• وقبيـل الفجر بنصف ساعة يتسلل هؤلاء حيث يشعلون النـار فى أكواخ القبيلة النائمة مطلقين وابلا من الرصـاص ، وينهض البؤساء النيام مذعورين ويقتل منهم من يقتل ، ويتم أسر النساء والصبية الأصحاء حيث يقيدون أرجلهم بالسلاسل الحديدية •• وكثيرا ما يحدث بعد ذلك أن ينقلب تجار العبيد على القبيلة المتحـالفة معهم حيث يغدرون بها ويفعلون فى أفرادها نفس الشىء ••

وقد حضر هذا الرحالة حفلات افتتاح قناة السويس كمترجم نظرا لمعرفته بمصر وباللغة العربية •• وفى حفلة رقص تنكرية أقامها ديلسبس تقدم الخديوى من الرحالة المتنكر خلف قناع أفريقى ، وعرفه بنفسه ثم انتحى به جانبا حيث عرض عليه قيادة حملة عسكرية لضم أعالى النيل لمصر تحت زعم محاربة الرق والقضاء على تجـارة العبيد « وهو زعم شبيه بزعم الانجليز فيما بعد من انهم كى يضمنوا تسديد مصر لديونها فعليهم أن يحتلونها !!»

•• وقد قبل بيكر هذا العرض مقابل راتب سنوى ضخم قيمته ١٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى بسعر ذلك العهد ، وجاء لتنفيذ الحملة ومعه زوجته الفاتنة وعدد من المساعدين ، وأخذ معه الجنود المصريين ــ وقد فوض بالسلطة المطلقة ــ وبواسطتهم تم له ما أراد ••

والغريب أن رأى بيكر ــ محرر العبيد المزعوم هذا ــ فى الافريقى هو : « أنه قد يكون فى طفولته متفوقا على قرينه الأبيض فى سرعة النمو الذهنى ، ولكن العقل لا يمضى فى نموه ، فهو يبشر بالازدهار ولكنه لا ينضج •• ومهما كان استنكارنا لنظام الاسترقاق ، فانه قد ثبت أن الزنجى لا يقدر نعمة الحرية ، ولا يبدى أتفه مشاعر العرفان لليد التى تحطم أغلاله » !!

والغريب أيضا أن اسماعيل نفسه كان من كبار مقتنى العبيد ، وكان الفلاحون المستخدمون فى ضياعه الشاسعة وجحافل الخدم فى قصوره أحرارا فى الظاهر عبيدا فى الواقع •• بل انه كان قد منح بعض النخاسين عقودا رسمية تخولهم حق اصطياد العبيد من أعالى النيل !!

وبالطبع فان سير صموئيل بيـــكر لم يوافق على القيام بمهمة فتح أعالى النيل هذه الا بعد أن أخــــذ موافقة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية .. وفى هذه المرة أيضا نظر الذئب الانجليزى الى هذه الغزوة بعين العطف ، وحدث نفسه قائلا :

ــ لطيف جدا هذا الخديوى ، فعندما أحتل مصر أكون قد احتللت السودان دون أن أنفق بنسا واحدا ..

وتبعت هذه الحملة حملات أخرى بقيادة انجليز برواتب ضخمة ، أبيد فيها الآلاف من الجنود المصريين ــ شاهد أحمد عرابى شوطا منها ــ وأنفقت عليها النفقات الباهظة مما كانت سببا فى زيادة الديون الأوربية ذات الفوائد الربوية ، بحيث اضطر اسماعيل الى بيع حق مصر فى نسبة الـ ١٥ فى المائة من دخل القناة وبأبخس الأسعار « وكان يظن أن فتح أعالى النيل سوف يضيف اليـــه دخلا كبيرا ! ! » .. وبذلك تكون مصر قد خرجت من مولد القناة بلا حمص ، بل ومديونة خاصة بعد عمليـــة الاحتيال الفظيعة التى ارتكبها ديلسبس فى حق مصر ،

وسميت وقتها بأكبر عملية احتيال ترتكب فى القــرن التاسع عشر والذى يسمى بقرن الاستعمار ••

فماذا دبر هذا السيد الفرنسى ؟ !

٦ -
بعض المطالب العادلة ..
لأوروبا الفاضلة ..

أراد اسماعيل فى بداية عهده أن يلغى من عقد شركة القناة البند الذى يلزم مصر بتوريد العمال المصريين لحفر القناة بالسخرة ، وقد ظلت الشركة تماطل لمدة خمس سنوات ثم أعلنت فجأة رضوخها الظاهرى.

وتحت ضغط الانجليز طالب الخديوى بالغاء البند الخاص بالترعة الحلوة التى كانت الشركة تحفرها ، مع الغاء حقها فى الأرض الصحراوية الواقعة على ضفتيها ؛ وكانت انجلترا تخشى استفحال النفوذ الفرنسى .. وقد

تظاهرت الشركة بالموافقة على هذا أيضا •• وفى الحقيقة لم يكن ديلسبس يوافق بقدر ما كان ينصب ويعد شركا فظيعا للامة الضعيفة ، اذ فوجئت مصر بشركته تطـالب بالتعويضات عما سبق ، فقد قالت ان الغاء السـخرة سيرغمها على استئجار العمال وعلى شراء كراكات وهـذا سوف يكلفها ٣٨ مليـــون فرنك فرنسى على مصر أن تتحملها ! •• وقالت انها أنفقت على الترعة الحلوة مبلغ ١٠ ملايين من الفرنـــكات على الحـكومة المصرية أن تعوضها عنها !! •• وطلبت ثمنا لضفتى الترعة ــ وهى أرض صحراوية منحت لها بالمجان ــ طلبت ثمنا لها ٣٠ مليون فرنكا أخرى !! •• ولم تكتف بهذا بل قالت : انها لو أتمت الترعة الحـلوة فانهـا كانت ستبيع الميـاه للمزارعين على الضفتين ، وكانت سـتأخذ رسوما من المراكب التى سوف تستخدمها ، وقدرت كل ذلك بمبلغ متواضع مقداره ٦ ملايين فرنك ، بالاضافة الى أن هذه الترعة كان سينمو بها السمك وصيده موردا خصـبا خسرته !! ••

ولهذا طالبت الشركة بمجموع هذه « التعويضات

العادلة » وكانت ٨٤ مليون فرنك •• وانزعج اسماعيل ورفض ، ثم قبل التحكيم لدى امبراطور فرنسا وكان نابليون الثالث ، وكان « فاضلا جدا » بحيث أقر جميع هذه المطالب « العادلة جدا » •• وكان ديلسبس يمت اليه بصلة نسب !!

كانت أكبر فضيحة خلقية لأحط عملية احتيال يشترك فيها ديلسبس وأصحاب البنوك الأوربيين مدعمين بامبراطورهم الذى يأتى ترتيبه فى سلسلة النابليون رقم ٣ •• ولم يكن أمام مصر المنكوبة سوى الرضوخ •• بل وأكملت على نفقتها الخاصة اتمام حفر الترعة الحلوة وصارت مرافق شركة ديلسبس ترتوى منها بالمجان !!

وأشهر الخديوى اسماعيل باشا افلاسه ولقب بالمليونير المفلس ، فقد عجزت مصر بجميع دخلها عن سداد مجرد فوائد الديون ، وبعض هذه الديون كان الجنيه فى أول العام تحق عليه فوائد ٦٠ قرشا عند آخر العام !! •• ورهنت المحاصيل وهى ما زالت مزروعة ورهنت مديريات بأكملها كالمنوفية والشرقية والجيزة ،

وكذلك ايرادات السكة الحديد والجمارك والضرائب بكافة أنواعها وعوائد الملاحات .. واستفحل التدخل في الشئون الداخلية بأن صار في الوزارة المصرية وزير فرنسي للاشغال ووزير انجليزي للمالية ..

ونظر الذئب الانجليزي الى كل هذا وقال لنفسه :

ـ نضجت الطبخة ، بدأت بالتجارة وبتصدير المال ولم يعد متبقيا لي سوى الاحتلال والسيطرة التامة ..

وانهالت التعيينات لأفاقي أوروبا في الوظائف الكبيرة دون عمل يؤدونه ، حتى زاد عددهم عن سبع عدد جميع الموظفين ولهم الرواتب العالية ، في نفس الوقت الذي استغنى فيه عن مئات الموظفين بحجة ضغط المصاريف ، وحدث في شهر فبراير ١٨٧٩ لوحده أن أحيل الى الاستيداع مرة واحدة ٢٥٠٠ ضابط !!

٧ -
برقية السلطان التركى ..
وعرائض معاشر الناس ..

كأسلافه كان الخديوى حاكما مطلقا ، ولم يكن هناك من يحاسبه ــ وأخطاء أمثاله تدفع ثمنها أجيـــال عديدة تالية لا ذنب لها ــ وكانت الحياة النيابية فى عهده شكلية تتمثل فى « مجلس شورى النواب » المـكون من بعض كبار الأعيان ورأيه لا يتعدى الاستشارة .. وعندما أشهر اسماعيل افلاسه عام ١٨٧٦ لم يكن المجلس قد انعقد مرة واحدة خلال العامين السابقين !! .. وكان التدهور قد بلغ أقصى مداه ، والتدخل الأجنبى قد صار

استعمارا مقنعا بحيث أصبحت مهمة الخديوى هى توقيع المراسيم التى يعدها الوزيران الأجنبيان ، فثار الوطنيون وعقدوا اجتماعا على شكل جمعية وطنية فى منـــزل أحدهم ، ثم رفعوا الى الخديوى قرارين ، الأول مشروعا لتسوية القروض المالية والثانى تخويلا لمجلس شـــورى النواب بمناقشة ميزانية البلاد وبجعل الوزارة مسئولة أمامه ..

وهنا أراد اسماعيل ان يضغط بهم على الأجانب، فجاذف بقبول هذين المطلبين وشكل وزارة جديدة طرد منها الوزيرين الانجليزى والفرنسى .. وبدأ المجـلس يناقش مواد الدستور الجديد عام ١٨٧٩ ــ حيث كانت البلاد تمر بمجاعة فظيعة مات فيها الألوف من الفقراء ــ وهنا تحرك الانجليز ؛ فلو أن المجلس أتم دستوره وصار من حقه تنظيم الميزانية وتمكن من تسديد الديون ، اذن لانهارت خطة الذئب .. لذا صار من اللازم ايقاف هذا المجلس وعزل الخديوى نفسه ان عارض هذا الايقاف .

وطلبت المانيا من السلطان عزل الخديوى . فتردد الذئب المريض الذى كادت جيوش مصر فى عهد محمـد

على أن تنقض على عاصمته •• فلما مارست انجلترا عليه بعض الضغوط الخفيفة استأسد وأرسل برقية معنوية الى « سراى القاهرة ــ صاحب السمو اسماعيل باشـا ــ خديوى مصر الأسبق •• » •• ما أن تلاها اسماعيل حتى صـاح :

ــ أهذا هو جزاء ٢٠ مليـــون جنيه استرلينى أرسلتها رشاوى لهؤلاء العثمانيين ؟!•

وقال القنصل الأمريكى وكان صـــديقا له : « ان اسماعيل أخطأ عندما وضع نفسه تحت رحمة ممولى لندن وباريس ، هؤلاء الذين كان معظمهم من اليهود ، وكان لديهم من سطوة المال القوة الكافية لتوجيه حكومتى انجلترا وفرنسا لخدمة أغراضهم » ••

وعين خلفا لاسماعيل ولده توفيق ، وكان خلع الأب درسا للابن مفاده الرضوخ للانجليز •• فصار المندوب السامى البريطانى بمثابة « مستشارا » للخديوى ، وكان يصدر التعليمات الى « سموه » فيما يختص بواجباته ، وبذلك أصبح هو الحاكم المطلق لمصر •• وبالمثـل كان

لكبار الموظفين المصريين « مستشارين » من الانجليز يصدرون اليهم الأوامر الخاصة بما يجب عليهم عمله ، وهكذا بينما كان الموظفون الأساسيون فى الدولة مصريين اسما كان أصحاب الأمر والنهى والفصل فى الحقيقة من الانجليز .. وهكذا حكم الأجانب عن طريق المراسيم التى يوقعها الخديوى الجديد ، فتم حل البرلمان تمهيدا لضرب الحركة الوطنية كلها ، والتى كان أحمد عرابى قد تألق فيها زعيما محبوبا ، ولم يكن تألقه وظهور حركته يعجب الانجليز .. كما صدر مرسوم بابعاد رجل ملتحى نارى العينين عن مصر هو جمال الدين الأفغانى ..

وكان الأفغانى قد ألهب حماسة مريديه بأفكاره الثورية ، وكان قد التف من حوله مثقفو مصر — ومعظمهم من نتاج البعثات التعليمية التى كان محمد على قد أرسلها الى أوروبا — وكان منهم الأدباء والأزهريون وضباط الجيش ، مثل محمد عبده وعبد السلام المويلحى ، وعبد الله نديم الذى صار خطيب الثورة العرابية ، وأيضا سعد زغلول الذى تزعم بعد ربع قرن

ثورة ١٩١٩ التى أعلنت شعار « مصر للمصريين » وطبعا مصر بثرواتها وقناتها ..

فى البداية كان الأفغانى قد فقد الأمل فى اصلاح حال اسماعيل ورآه أصل البلاء ، فراح يستعجل عزله لتولية ولده توفيق على أمل أن يكون الابن أفضل من الأب ، فكان أول ما فعله الابن هو طرد الأفغانى .. فرحل وحل محله تلميذه الشيخ محمد عبده ، لكن التلميذ لم يكن فى ثورية الأستاذ ، فلم يكن يؤمن بالحلول الجذرية ، وكان يعتقد ان البلاد لم تنضج بعد للحكم الدستورى .. لهذا كان من الطبيعى أن ينشق عليه عبد الله النديم ، الشاعر الثورى النابع من الريف ليكون جماعته الخاصة التى شكلها على حد قوله من فقراء المصريين ، وصار هو خطيب الثورة الملتهب ، وطاف بالمدن والقرى يشرح للناس القضية ويجمع توقيعاتهم على عريضة تفوض عرابى فى التحدث باسمهم جاء فيها : « واعلموا يا معاشر الوطنيين بأن أولادكم فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقكم .. والمطلوب منكم

هو التوقيع على هذه النشرة والمقصـــود بها أن أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد ــ التوقيع :
« أحمـــد عرابى »

٨ -

السيف المشهور ..
وذئاب الميناء ..

كان عـرابى من أصل ريفى له مشية تشـبه مشية مشايخ البلد ، عريض المنكبين يتصف بنفس صفات الفلاحين ، وكان قد ظهر اسمه بين صفوف العسـاكر والضباط ثم سرعان ما صار زعيما شعبيا عرشه هـو حب الناس •• وكان خطيبا بارعا وكان ـ دون شك ـ صادق الاخلاص •• وكانت حركته ثورية شعبية واضحة الملامح والأهداف : « فحركة الفلاحين تناضل من أجل التخلص من تسلط الخديوى والأمراء والباشـوات الاغنياء » : هكذا سمى حركته حركة الفلاحين ••

وراح خطيبه عبد الله نديم يهاجم حياة البذخ للاعيان والحكام الرافلين فى ثياب العز بين الغانيات والمبذرين للأموال الطائلة هى فى الحقيقة أموال الفلاحين البؤساء .. كما دافع بقوة عن قدرة بسطاء الناس على ممارسة الحياة الديمقراطية بشرط أن يمثلوا فى مجلس النواب على قدم المساواة مع الأمراء والأعيان ودون تفرقة طبقية ولا يكون تمثيلهم رمزيا ذرا للرماد .. كما جاهر بأمنيته فى أن يرى «عرش السلطان ينهار فوق رأسه» .. وكان فى ذلك متفقا مع ما أعلنه عرابى نفسه من رغبته فى التخلص من حكم أسرة محمد على ، ومع ما أعلنه سامى البارودى رفيق عرابى من أن الهدف هو « جمهورية مصرية مثل جمهورية سويسرا » .

ومعنى كل هذا أن تصبح « مصر للمصريين » بعد أن أصبحت مصر لقناة السويس .. وقد رفض الخديوى توفيق ـ مدعما برضا الانجليز ـ مطالب الشعب التى رفعت اليه عن طريق عرابى ورفض الاعتراف بزعامته ، بل وأمر بابعاده مع رفاقه الضباط الشبان هم وكتائبهم الى خارج القاهرة ؛ فاذا بهم يقودون جنودهم الى قصر

عابدين ــ وكان ذلك فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ــ حيث واجه عرابى الخديوى من فوق صهوة جواده شاهرا سيفه ، ومن حوله جنوده وجمـوع الناس أو معاشر المواطنين على حد قوله .. فسلم توفيق لفـوره تسليما كاملا ، ووافـق على تأليف وزارة وطنيـة عـين فيهـا أحمد عرابى وزيرا للحربية.. لكن سرعان مااحتج البريطانيون والفرنسـيون على تعيينه !! .. فكان هذا كفيلا بأن يزيده شعبية عن ذى قبل . وسرعان ما انتشر بين الناس نبأ عن اكتشاف مؤامرة لاغتياله ، وكان وراؤها حـوالى أربعين ضـابطا تركيـا وشركسيا .. وعندما حوكموا وقضى بنفيهم الى السودان رفض توفيق اعتماد الحكم .. فقد كانت لتوفيق هذا بعض صفات الجوارى ــ وكان فى الأصل ابنا لاحدى جوارى اسماعيل ــ فهو يرضخ للارادة الأقوى منه لكنه الرضوخ الظاهرى . ثم يحاول بالالتواء أن يستعيد ما فقده ، وما من انسان وثق فيه الا وخانه ، كانت تأكله الغيرة من عرابى لذلك بيت له نية الانتقـام .. بينما كان عرابى مثاليا طيبـا ظن أن الخديوى قد صفا قلبه عندما صافحه وعانقه فيما بعد ..

وبسبب انتصار عرابى عمت الفرحة مصر ، وراح الناس يرسلون اليه الشكاوى والمظالم لانصافهم من ظلم الأثرياء والمرابين ، وتشكل المجلس النيابى على هيئة جمعية تأسيسية ليبحث الدستور وصار له حق مناقشة الميزانية .. وهو ما لم يكن يريده الانجليز ــ وهو نفس السبب الذى عزلوا بسببه اسماعيل ــ لكن الوضع هذه المرة اختلف، اذ كان توفيق نفسه تحت الحماية الانجليزية شاعرا بالعداء لعرابى الذى تجرأ وشهر سيفه فى وجهه من فوق صهوة جواده ..

ولما وجد السلطان التركى أن عرابى قد صار صاحب الكلمة فى مصر ، أرسل سرا من يعرض عليه أن يتبوأ حكمها بدلا من سلالة محمد على ، مقابل أن يضرب النفوذ الانجليزى والفرنسى وبشرط أن يدين بولائه للدولة العثمانية ، ورفض عرابى ، لم يكن يريد مكاسب شخصية ــ هكذا قال ــ « بل المساواة بين الطبقات واحترام الفلاح وعدم تسخيره وعدم اغتصاب ريع أرضه » .. لذلك كرهه السلطان التركى ، وزاد كرهه

عندما وجد أن عرابى قد أصبح أمل المسلمين خارج مصر أيضا . فاضحا بذلك زعم الخلافة الدينية التى كان يتمسح بها العثمانيون •• وقرر السلطان ارسال حملة عسكرية الى مصر لتأديب عرابى ، فما كادت تصل الى اللاذقية بسوريا حتى هاج الناس ضدها وامتنعوا عن التعامل معها ؛ وعندما شذ أحد التجار عن اجماع المقاطعة وباع للأتراك ، حرق السوريون محاله وتركوه يبكى دون مساعدة شامتين فيه : فليساعدك سادتك الأتراك ••

أما انجلترا وقد شعرت بخطورته على خططها الاستعمارية فقد سارعت وعرضت عليه منحة شهرية ضخمة مدى الحياة له ولأسرته من بعده ؛ مقابل أن يغادر مصر ويعيش فى أية دولة أوروبية يختارها •• لكنه أبى ورفض عرضا مماثلا من فرنسا •• فأدركت الدولتان أنه عازم على اكمال الطريق ، فجاءت الأساطيل الانجليزية الى ميناء الاسكندرية بقصد احتلال مصر بلد قناة السويس عسكريا •• وأخطأ عرابى فسمح للخديوى بالسفر الى الاسكندرية بعد أن كان فى قبضة يديه

بالقاهرة ، فعل ذلك رغم معارضة معظم أعوانه ، وعلى رأسهم بطل الشجعان المسمى محمد عبيـــد ..

٩ -

لمحات من خيانات الأعيـــان ..
وردم القنـاة ومد الامتيـاز ..

وكانت خيانة توفيق قد أضحت يقينا عند الجميع، وأفتى العلماء باستباحة دمه ، لكن عرابى جفل من القتل ورفض متعللا بأن قتل الخديوى سوف يعطى فرصة للدول الأوربية للتدخل المسلح على أساس أن الأمن فى مصر غير مستتب . وهنا عرض عليه بطل الشجعان محمد عبيد أن يقوم باغتيال توفيق على أن يقبض عليه عرابى بعد ذلك ويحاكمه ويشنقه ، وبهذا يقطع الطريق على الذئاب الأوربية ..

وفات عرابى وعبيد الطيبين أن التدخل كان وشيك الوقوع ، وأن اختلاق الأعذار سهل ميسور .. فقد زعم الانجليز أن عرابى قد قام باصلاح المدفعية الساحلية للاسكندرية، وفى هذا تهديد خطر على بريطانيا «!!» .. وبناء عليه فقد اكتظت ميناء الاسكندرية بالبوارج الحربية من النمسا وأمريكا وألمانيا واليونان وروسيا القيصرية الى جانب الأسطول الفرنسى والأسطول الانجليزى ..

وقبل فجر يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ كانت جميع القطع قد تراجعت الى عمق البحر تاركة المجال لأسطول بريطانيا العظمى منه للشاطىء ، حيث بدأت مدافعه فى تمام الساعة السابعة تدك المدينة الساحلية الجميلة فوق أهاليها العزل .. وكان قائد الاسطول على يقين من أن استحكامات الشاطىء المصرى قديمة يرجع بعضها الى عصر محمد على ، وكان يقدر لاسكاتها مدة نصف ساعة لا تزيد .. لكنه منى بخيبة أمل بالغة ، اذ استمر الضرب طوال النهار، وكان المصريون يعاودون الضرب كلما انقشع

دخان القنابل الانجليزية .. وظلت المقاومة مستمرة حتى نفذت الذخيرة المصرية وتهدمت المنازل ..

ونقل عرابى جيشـــه الى كفر الدوار . ولم يقدر الانجليز على مواجهته هنـــاك وخشوا أن يغـــرق عليهم الدلتا ، فعزموا على الالتفاف من ناحية الشرق أى من ناحية قناة السويس ، فتمركز لهم عند التل الكبير ، وقرر ردم القناة كى يغلقها فى وجه سفنهم القادمة بالجيوش من الهند ، غير أن ديلسبس وعده باغلاقها فى وجوههم .. ولم يثق عرابى وطلب من بعض الضبـــاط الأمريكيين العـــاملين فى الجيش المصرى أن يبثوا الألغام فى مدخل القناة فوعدوه لكن التلغيم لم يتم ، وكان على عرابى الا يركن لهم .. ففى ٢٠ أغسطس احتلت قوات البحرية البريطانية بورســـعيد ، وتقدمت بطول الممر المـــائى ؛ مما دعا القيادة المصرية الى اجتماع حربى فى نفس اليوم فى كفر الدوار قررت فيـــه ردم القنـــاة وردم الترعـــة العذبة ، وأرســـلت برقية بهذا المعنى الى قائد الجبهة الشرقية .. الا أن الوقت كان قد فات على تنفيذ هذا القرار الاستراتيجى ..

وتقدمت جحافل الانجليز من الشرق أى من عند قناة السويس ، واقتربت من مشارف التل الكبير مدججة بأعتى الأسلحة وبأعداد تفوق أعـداد الجيش المصرى بأربعة أضعاف .. ورغم هذا فقد استبسل المصريون فى الدفاع . ودام القتال ـ منذ ضرب الاسكندرية ـ قرابة الشهرين .. لكن اللعنة على خيانة السادة ..

قال المؤرخون الأجانب المنصفون : « ان انتصـار الانجليز على عرابى لم يكن راجعا الى كفاءة قواتهم ، وانما الى خيانة بعض الأعيان على رأسهم سلطان باشا » .. ففى ظلام الليل قام أذناب الخونة بارشاد الانجليز الى المسالك الخفية لينقضوا على قلب جيش الفلاحين وعلى اسـتقلال مصر ، لكن مصر لم تكن تهمهم بقدر ما كانت تشـغلهم ثرواتهم وكيفية الاحتفاظ بها بشتى السـبل حتى لو صـاروا أذلاء للانجليز .. واحتلت بريطانيا العظمى سيدة بحار الدنيا وقتها مصر وبالتالى السودان بالتبعية ..

وكان أول ما فعلته ان أمرت خديويهم توفيق بالغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للعرابية ، وحصر مهمته

فى المحافظة على النظام داخل البلاد ، أى تحويله الى جيش بوليسى خفض الى ستة آلاف جندى فقط ! ..
وبعد تنفيذ هذا التخفيض اتخذت منه ذريعة لبقاء جنودها فى مصر بحجة حمايتها لعدم وجود جيش خاص بها !!

لكن « ولسلى » قائد قوات الاحتلال اعترف فيما بعد بأنه « لو كان عرابى قد سد القناة فاننا كنا سنبقى زمنا طويلا لا نقدر على أكثر من فرض حصار بحرى على مصر .. لقد أنقذنا تأخره عن ذلك يوما واحدا » ..

وبعد معركة التل الكبير دخل الانجليز القاهرة فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢ ليبدأ عهد الاحتـلال البريطانى « وكانت بداية حربهم ضد مصر فى يوم ١١ يوليو من نفس العام » .. وانزعجت الدول الأوربية الأخرى من استئثار انجلترا بالشئون المصرية وبخاصة قناة السويس، وحتى تسكتهم الحكومة الانجليزية أعلنت ضمانها لحرية الملاحة والمرور فى القناة وأكدت صفتها الدولية .. وتم تدوين اتفاقية القسـطنطينية فى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٨٨ التى تعطى « حق المرور فى القناة لسفن جميع الدول دون استثناء عدا الدول التى تكون فى حالة حرب مع مصر » .

وظلت شركة القناة الأجنبية التى يرأسها ديلسبس تستولى على دخلها ، وكان نصيب الانجليز منه يزيد عن ٤٤ فى المائة .. ويروى أنه فى أواخر عام ١٩٠٩ تقدمت الشركة تطلب من النظارة المصرية «أى الحكومة المصرية» مد امتياز قناة السويس لأربعين عاما أخرى « !! » أى حتى أواخر عام ٢٠٠٨ ، وقد قوبل هذا المشروع بمعارضة ضارية من كافة القوى والاتجاهات بمصر ، وأصدر طلعت حرب كتابا بعنوان قناة السويس هاجم فيه مد الامتياز وأعاد ذكر تاريخ الشركة الأسود مع المصريين المغلوبين على أمرهم .. وانتهى كل ذلك باغتيال رئيس الوزراء المصرى وباغتيال مشروع المد نفسه ..

- ١٠

تنويعات على لحن البطل الجسور ..
ورد الفلاح على الانجليزى ملنر ..

ويحكى انه فى أعقاب الاحتلال اختفى رفيق عرابى محمد عبيد ، شعلة الحماسة والنقاء ، الباسل الذى قاتل حتى النهاية ، والذى كان صيته عند الناس عظيما .. فلما اختفى ولم تظهر له جثة ظلوا يعتقدون فى نجاته من الموت ، وراحوا يشيعون انه حى وانه دائم التنقل هربا من الانجليز ومجهزا لجولة أخرى ضدهم .. تحول الى أسطورة النقاء الثورى التى يعشـقها الناس ، والتى ينسـجون من حولها الأسـاطير وينشدون من أجلهـا الملاحم : الأقدام والطيبة والطهارة الثورية ..

ومع ازدياد عسف الانجليز كان كره المصريين لهم يتضاعف ** وقد حدث في عام ١٩٠٦ ان كان عدد من ضباط الاحتلال البريطانى يصطادون الحمام قرب قرية مصرية آمنة صغيرة اسمها « دنشواى » فقتلت رصاصاتهم احدى الفلاحات وحرقت بعض الأجران ، مما استفز الأهالى فخرجوا يطاردونهم ** وحدث ان مات أحد هؤلاء الجنود بضربة شمس ، وكان ذلك فى الثالث عشر من شهر يونيو القائظ ** وما ان وصل الخبر الى القاهرة حتى صدر الأمر بتشكيل محكمة خاصة نقلت معها المشانق الى القرية من قبل نظر القضية وملابساتها !! ** وما دامت المشانق قد نصبت فقد اجتمعت « المحكمة » ونظرت « القضية » وبعد أن « تداولت » أصدرت حكما يقضى باعدام أربعة من الفلاحين وبسجن وجلد سبعة عشر آخرين !! ** ولما كان حكمها هذا غير قابل للاستئناف أو للتصديق عليه من أية جهة عليا فقد تم تنفيذه فى اليوم التالى مباشرة ** وشنق الأربعة وجلد الآخرين على مرأى من أهالى قرية دنشواى نفسها !!

واستكمالا للشكل « الديمقراطى » فقد حضر خبير الطب الشرعى التنفيذ وشهد بصحة الشنق وشهد أيضا بصحة الجلد «!!»

وقد هزت هذه المجزرة أصحاب الضمائر من الأوربيين .. فما ان بلغ أمرها الى الكاتب الايرلندى الساخر الشهير « برنارد شو » حتى هب يهاجم هذه العدالة الانجليزية ، وكتب قائلا : « ان ما فعله الفلاحون المصريون لا يخرج عن نفس ما كان سيفعله نظراؤهم من الانجليز لو انهم أضيروا بنفس ما أضيروا به فى المال والحرمات ، وان الضباط الانجليز لم يكونوا فى الخدمة يوم الحادث ، بل كانوا عابثين بلعبة أساءوا ممارستها ، وأن الفلاحين لم يكن بامكانهم التحمل الى حين الشكوى لذوى الأمر الذين هم من الانجليز أيضا !! .. وأن أحد المشنوقين ـ يقصد حسن محفوظ ـ كان كهلا فى الستين ولم يكن هناك مبرر لشنقه !! »

ثم انهال ساخرا من لورد كرومر المندوب السامى الانجليزى بالقاهرة ومن مساعده ، وعندما دافع هذا

الأخير عن جريمة جلد الفلاحين بالسياط لأن المصريين في زعمه « قدريون لا يأبهون للمــوت وانما يؤدبهم السوط » رد عليه شو هازئا : « اذن فلماذا شنقتم أربعة من هؤلاء القدريون ؟! »

وظل المصريون يترقبون عودة البطل الجسور ، .. ولم يدم انتظارهم طويلا .. اذ سرعان ما بعث من جديد كأقوى ما يكون في ملايين البسطاء والفلاحين ، الذين هبوا بعد هزيمة التل الكبير بنحو ربع قرن يشهرون سلاح العداء ضد الانجليز ، وقد وجدوا زعيما جديدا له اسم سعد زغلول ؛ الذي كان قد عرف في شبابه أحمد عرابي وعبد الله نديم ، وكان مثلهما خطيبا بارعا ..

وقد حدث في أواخر عام ١٩١٩ ان وصلت لجنة انجليزية سميت باسم رئيسها ملنر بغرض الاتصال المباشر بالمصريين ــ قفزا من فوق رءوس الزعماء ــ لمعرفة أسباب السخط التي أدت بهم الى القيام بثورة مارس من نفس العام .. وطلب سـعد زغلول من مسـاعده الرهيب عبد الرحمن فهمي العمل على مقاطعة هذه اللجنة ، فنشر

هذا أعضـــاء تنظيمه السرى يطلبون من الأهالى عـــدم التحدث معها ، وكانت مقاطعة مدهشة ناجحة الى أقصى حدود النجاح فى الريف والمدن ..

وذات يوم هبطت هذه اللجنة الى احـــدى قرى الجيزة ، فراح الفلاحون ــ وكان الأوربيون يسمونهم بأصـــحاب الجلاليب الزرق ــ يفرون من وجهها حتى لا يتحدثون اليها .. وعندما ضيقوا الخناق على واحد منهم سأله ملنر بواسطة مترجمه عن رأيه فى أســباب ثورة مارس ١٩١٩ ورد الفلاح :

ــ اسأل سعد ..

وحاول ملنر أن يكسب وده بالتبسط معه ، فسأله عن عدد المرات التى يروى فيها زراعته ، وبعد برهة صمت رد الفلاح :

ــ اسأل سعد !!

١١ -

فصل من ثورة أصحاب الجلاليب الزرق..
ومن دسائس الرأس الكبير ..

فى الفترة من عرابى الى سـعد كانت فرنسا قد أطلقت يد انجلترا فى مصر ، مقابل اطلاق يدها فى بلاد أخرى .. وعندما قامت الحرب العـالمية الأولى صـار عساكر الحكومة يجمعون الفلاحين ودوابهم للعمل فى خدمة الانجليز ، فى تمهيد الطرق ونقل المعدات الثقيلة عبر الصحراء ، ولجأت الحـكومة الى العنف لجمع الرجال ، فكان عساكرها يكمنون عند مشـارف القرى ساعة الغروب ، حيث ينقضون على الفلاحين العائدين من

حقولهم وينتقون منهم أكثرهم صحة ويرسلونهم تحت تهديد السلاح والكرباج الى خدمة جيش الاحتلال ، وهو نفس ما كان يعمل معهم عند حفر قناة السويس •• ولهذا سخط الفلاحون ••

كذلك سخط أصحاب المال من المصريين من مزاحمة الأجانب لهم واستئثارهم بكل النشاط الصناعى والتجارى ، وبالمثل أصحاب الأطيان حيث أجبروا على بيع قطنهم للمستوردين الانجليز بسعر أقل من سعره العالمى ، وأيضا الطبقة المتعلمة التى كانت محرومة من المناصب الكبيرة لانفراد الأجانب بها ••

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٨ ـ وكانت روسيا قد خرجت منها بعد ثورتها الاشتراكية ـ تكون وفد من عيون البلد للمطالبة بالاستقلال سمى الوفد المصرى ـ الذى صار بعد ذلك حزب الوفد ـ ولما كانت تنقصه الصفة الرسمية للتمثيل فقد تم تدعيمه بمئات العرائض الموقعة من الجماهير تفوضه فى التحدث باسم مصر « وهو أشبه بما فعله عرابى عندما طلب من

معاشر الناس أن تفوضه فى التحدث باسمها » •• وكما قاوم الانجليز أحمد عرابى فقد قاوموا تحركات الوفد المصرى عن طريق الأحكام العرفية التى كانت مفروضة وقتها •• لكن عملية جمع التوقيعات اتسعت وأضيفت اليها الخطب فى المنتديات وطبعها وتوزيعها ، بحيث صار المناخ مهيأ تماما للثورة ••

وكان سعد زغلول مريدا للشيخ محمد عبده ، آمن مثله بأن طريق الاستقلال يمر بالاصلاح الاجتماعى وبتعليم الناس ، لذلك أيد قاسم أمين فى دعوته الى تحرير المرأة •• ومن منزله صدر المنشور الأول الخاص بانشاء أول جامعة مصرية ، والتى تعرف الآن باسم جامعة القاهرة ••

وقد جاءت شرارة الثورة فى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت ٨ مارس ١٩١٩ عندما ذهب الى بيت سعد زغلول ـ الذى كان يسمى بيت الأمة ـ ضابط بريطانى معه مترجم قبرصى وخمسة من الجنود الانجليز المسلحين بالمسدسات فى سيارة كبيرة بريطانية تحمل

مدفعا رشاشا ، حيث وقف ثلاثة منهم على الباب الخارجى للمنزل بينما دخل الضابط ومترجمه والجنديان الآخران على الزعيم فى غرفة مكتبه وأبلغه أمر اعتقـاله فـورا وبلا مناقشة ، ثم صحبوه معهم الى سيارتهم الحربية التى انطلقت به الى ثكنة قصر النيل « مكان فندق هيلتون وجامعة الدول العربية الآن » .. ثم نقل الى بورسعيد عند مدخل القناة ، ومع عدد من رفاقه نقلوا الى منفاهم فى جزيرة مالطة بالبحر الأبيض المتوسط ..

ورغم ان هذا الاعتقال تم فى كتمان شديد الا أنه لم يمض يوم واحد حتى عرفته القاهرة كلها ، ولم تمض ثلاثة أيام حتى عرفته مصر كلها حتى أعمق أعماق ريفها.. وفى اليوم التالى مباشرة قامت مظاهرة من طلبة الحقوق والهندسة والمعلمين والطب والزراعة والتجارة ، ورغم انهم كانوا فى مظاهرة سلمية الا ان الجنود الانجليز أطلقوا عليهم الرصاص .. فاتسعت المظاهرات فى اليوم التالى لتشمل طلبة الثانوى والابتدائى والأزهر والمعاهد الدينية .. ثم عمال المنائر والسكك الحديدية والمحامون ورجال القضـاء والأطباء والمعلمون .. وكان خطبـاء

المسلمين يخطبون فى الكنائس ، وخطباء المسيحيين يخطبون فى المساجد ، محبطين بذلك محاولة الانجليز لاثارة الفتنة الطائفية بين المصريين على أسس منهجهم الشهير : فرق تسد .. ثم تلا كل ذلك اضراب عام شمل جميع الفئات والمهن وفى شتى أنحاء مصر .. وبعده اشتعلت الأعمال الفدائية ، فقتل الجنود الانجليز بالشوارع ليلا فى القاهرة والاسكندرية وبور سعيد وغيرها ؛ مما اضطرهم الى عدم الخروج الا فى مجموعات مسلحة .. ثم انتقلت أعمال العنف على أشدها فى باقى المدن والمراكز والقرى ، وانتشرت الحرائق وأعلنت بعض المناطق استقلالها وخروجها عن طاعة الحكم الانجليزى منها مديرية المنيا وقريتى زفتا وميت غمر ومناطق أخرى ..

وبعد شهر كامل اضطر الانجليز الى التراجع بالافراج عن سعد زغلول ورفاقه .. وبالسماح للوفد المصرى بالسفر الى أى مكان .. وقد وقع هذا القرار « نائب جلالة الملك الخاص أ . هـ . هـ . اللنبى » ..

والمقصود بجلالة الملك هنا هو ملك الانجليز بالطبع وليس ملك مصر ..

وانتهى الأمر بالفوز بخطـوة هامة على طـريق الاستقلال ، اذ أعلنت مصر دولة مستقلة ذات سيادة من حقها انشاء القنصليات التى تمثلها بالخارج كدولة مستقلة بعد أن كانت بلا وزير خارجية ، وأصبح لها دستور سمى بدستور ١٩٢٣ كان من شأنه أن يحد من سلطة الملك والأعيان بعض الشىء ، وكانت خبرة المصريين قد علمتهم ان النكبات تتكاثر مع وجود الحاكم المطلق ومع غيـاب الحكم النيابى والحرية ..

غير ان هذا الاستقلال كان مشوبا بأربعة تحفظات أهمها التحفظ الخاص بتأمين مواصـلات الامبراطورية البريطانية بمصر ، أى باستمرار تسـخير قناة السويس لصالح انجلترا ..

وتولى سعد زغلول أول وزارة دستورية ؛ فقام على الفور بالعمل على أن تستقل العملة المصرية عن العملة الانجليزية ، وعلى زيادة ميزانية التعليم وتشجيع

الفنون الجميلة ، وبيع أكبر جزء ممكن من أرض الحكومة الى صغار المزارعين ، والاستغناء عن عدد كبير من الموظفين الأجانب ..

وكانت الجماهير هى التى خلقت سعد زغلول زعيما، وهى التى أججت بداخله شعلة الثورية ، وحققت من خلاله خطوات هامة على طريق جعل « مصر للمصريين » .. وجعلت منه أقوى وأحب شخصية تعيش على أرض مصر ، ورئيسا لحزب الأغلبية الشعبية الساحقة .. لذلك فقد كرهه الملك وكرهه الانجليز .. ولذلك فقد كان يوم وفاته حزنا وبكاء فى كل دار مصرى ، وشماتة فى قصر الملك وفرحا فى دار المندوب السامى البريطانى .. وما أن تولى خليفته مصطفى النحاس باشا رئاسة الوزاره حتى وضعت فى طريقه كمية هائلة من العراقيل أدت الى تقديم استقالته ..

لكن النحاس باشا لم يكن بالرجل السهل ، فقد خرج من عند الملك وتوجه رأسا الى البرلمان حيث شرح

للأعضاء بطريقته البارعة فى الخطابة كافة المضايقات التى حاربه بها القصر، فهبوا ثائرين يعربون عن سخطهم، ودفع الغضب بأحدهم وهو الكاتب المعروف عباس محمود العقاد الى التفوه بعبارته الشهيرة :

« ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلد فى صيانة الدستور وحمايته » .

وكان يعنى بأكبر رأس فى البلد الملك فؤاد نفسه ..

١٢ -

دقائق من يوم تحطيم السلاسـل
ومن لعبـة القطارات الحـديدية

قبل الرأس الكبير التحدى بقبـــوله لاستقالة النحاس باشا ، وبتكليفه لعدو حـــزب الوفد اللدود اسماعيل باشا صدقى بتأليف وزارة جديدة فى يونيـــو ١٩٣٠ سميت بوزارة القبضة الحديدية للجوئها الى شتى أساليب القمع والاعتقالات .. وكان الملك يريد البلاد بلا دستور ، بلا برلمان ، كما كان يريد ضرب حزب الوفـــد .. ولهذا فقد أمر صدقى باشا بحل مجلس النواب ابتداء من اليوم التالى لتوليه الوزارة !! .. لكن رئيسا مجلس

النواب والشيوخ ـ ويصا واصف وعدلى يكن ـ أبلغاه أن مرسوم التأجيل ـ طبقا للدستور ـ يجب أن يتلى بالمجلسين ؛ فطلب بألا يتحدث أى عضو من النواب بعد تلاوة المرسوم لكن طلبه رفض ؛ فما كان منه الا أن أغلق أبواب البرلمان بالسلاسل الحديدية ، مما جعل ويصا واصف يصدر أوامره لأحد رجال اطفاء المجلس بتحطيم السلاسل بالبلطة ؛ وتم ذلك فسمى هذا اليوم بيوم تحطيم السلاسل !!

ورد صدقى باشا بأن استصدر مرسوما ملكيا بفض الدورة البرلمانية كلها ، ودفع البوليس الى طرد النواب الذين حاولوا الاعتصام بالمجلس ضاربا عرض الحائط بما للمجلس من حرمة ومن حصانة برلمانية !! .. وانتهى كل ذلك بأن خطا الرأس الكبير خطوته الكبرى باصدار مرسومه السامى بابطال دستور ١٩٢٣ نهائيا ؛ بحجة أنه مقتبس من الدساتير الأوربية المتقدمة فهو لا يصلح لبلادنا المتخلفة ، وانه أشبه بالثوب الفضفاض لشعبنا الذى لم ينضج بعد لممارسة الديمقراطية !!

لكن عندما ثار « هذا الشعب الذى لم ينضج بعد لممارسة الديمقراطية » أعلن صدقى باشا أنه مادام الناس يهوون الدساتير فهو يقدم اليهم دستورا جديدا ، سمى بدستور ١٩٣٠ ، وقد جاءت بنوده مطابقة لرغبات القصر .. ثم شرع فى تكوين حزب خاص به سماه ــ دون حياء ــ حزب الشعب ، استغل السلطة فى اكراه العمد والمشايخ على الالتحاق به ، وفى تهـــديد كل موظف بالرفت ان لم ينضم .. ولم ينس طبعا أن يعين نفسه رئيسا لهذا الحزب ، وان يصدر له جريدة سماها ــ أيضا ! ــ جريدة الشعب لم تكن تنشر ســـوى بيانات التـأييد والتحبيذ لكل ما تأتى به حكومته من اجراءات قمعية لهذا الشعب الذى تسمت باسمه !! ..

بعد ذلك أعلن صدقى باشا عن اعتــزامه اجراء انتخابات جديدة ، أراد أن يضـــمن بها أغلبية برلمانية لحزبه ــ ولو صورية ــ حتى يتمكن من التفاوض مع الانجليز تحت زعم تمثيله للاغلبية .. ولقد فهم الوفــد ــ حزب الأغلبية الأصيل ــ هذه الحيلة ، فرأى رئيســه مصطفى النحاس أن يتحالف مع حزب الأحرار الدستوريين

فيما سمي وقتها « عهد الله والوطن » لجعل هذه الانتخابات كأن لم تكن ، وذلك بتحريض المواطنين على مقاطعتها .. وكانت هذه بداية المتاعب الدموية للوزارة الصدقية ، حيث لم تتوان كافة الهيئات عن اظهار رفضها له بكافة السبل .. وقرر الحزبان المتحالفان أن ينتشر الزعماء فى أنحاء البلاد لافهام الناس أبعاد المؤامرة ، وكان من بينهم عدلى يكن وفتح الله بركات ومكرم عبيد والدكتور حسين هيكل وآخرين ، وبالطبع مصطفى النحاس خليفة سعد زغلول ..

وكان اليوم المحدد لسفرهم الى طنطا فى أواخر عام ١٩٣٠ يوما عجيبا ، فغيوم الشتاء تحجب دفء الشمس وتحيل نور النهار الى الرمادى المقبض المثير للتوتر ، وقوات الحكومة تزيد من هذا التوتر بحصارها لمحطة السكة الحديد من جميع الجهات ، تنفيذا لأوامر صدقى باشا الصادرة بمنع سفر الزعماء الى طنطا بكافة السبل حتى ولو بالقوة المسلحة ، وكانت طنطا احدى معاقل الوفد التى يحظى فيها بأغلبية شعبية ..

ويحكى أن ميدان باب الحديد « رمسيس حاليا »

كاد أن يمتلىء بعدد كبير من المواطنين الذين تجمعوا عن قرب ومن حول تمثال نهضة مصر « الواقف مكانه الآن رمسيس الثانى » فى انتظار معرفة ردود أفعال زعمائهم .. ولم يدم ترقبهم طـــويلا ، فمع اقتراب موعد قيام القطاراتوصلت السيارات التى هبط منهاهؤلاء الممنوعين من مغادرة القاهرة ، بالطرابيش فوق رءوسهم والمنشات أو العصى فى أيدى بعضـــهم ، وســـمات الوقار على وجوههم .. وتحفزت القوة المسلحة للتصدى لهم .. وساد صمت التوتر لدى الأهالى المحتشـــدين ، ونظر الزعماء الى البنادق المصوبة اليهـم ثم الى الجمـــوع المحتشدة ، ومنهم استمدوا الشـــجاعة التى جعلتهـم يتقدمون شامخين فى خطوات واثقة يشقون طريقهم الى مدخل المحطة غير هيابين ، الأمر الذى جعل أفراد القـوة المسلحة يجمدون فى وقفتهم مأخوذين من هذه الجسارة وقبل أن يستفيقوا ليحركوا ساكنا كانت الخطـــوات الواثقة قد عبرت المدخل وصارت تدق رصيف قطـارات الوجه البحرى ..

وكما أصابت هذه الجـرأة أفراد القـوة المسلحة

بالشلل المؤقت فقد هزت انفعال الأهالى فانطلقوا يهتفون بسقوط صدقى باشا ووزرائه ، ثم تحـــركوا قاصدين الدخول الى المحطة ، لكن القوة المسلحة تصـدت لهم وانشغلت فى منعهم وفى تفريقهم •• بينما كان الزعماء يصعدون الى احـدى عربات الدرجة الأولى ، وهـم يسمعون هدير الناس بالخارج يهتفون بحياتهم ••

ولم يدم كل هذا سوى دقائق قليلة جدا ، تفرق بعدها الأهالى بالخارج منتشرين الى أرجاء القاهرة ، سيرا على الأقدام أو بالترام أو بعربات الحنطور ، يروون لكل من يقابلهم عن هذه الحادثة التى بهرتهم •• بينما الزعماء فى داخل القطار يشكرون الركاب الذين أقبلوا على تحيتهم •• ولكنهم سرعان ما أخذت ايديهم القلقة تخرج الساعات من الجيوب لمعرفة الوقت ، لقـد أزف موعد تحرك القطار ومع ذلك لم يدق جرس القيام !!•• وراحت أنظارهم المتوترة تراقب الرصيف علهم يجدون من يفسر لهم سر هذا التأخير ، وقد داخلهم الشك من أن يكون صدقى باشا قد ألغى الرحلة كلها ••

لكن دقات الجرس النحاسي دوت فى أرجاء المكان وبدأ القطار يتحرك مغادرا المحطة ، وآلته البخارية تنفث دخانها الكثيف الذى تصاعد الى الجو الملبد بالغيوم ليزيد من قتامة النهار الذى كان ما زال فى أوله .. وارتاح الزعماء الى انتصارهم هذا ، وتملكت النشـــوة قلوب الركاب فراحوا يتحدثون معهم فى شئون الساعة ، وكان الناس وقتها يتناقشون فى كل كبيرة وصـغيرة اذ كان العمل السياسى ملكا للجميع ولم يكن حكرا على القادة وحدهم ..

لكن فجأة توقف القطار .. ثم اهتز متقهقرا فى عدة ارتجاجات .. ثم ثبت فى مكانه ثانية ، وبعدها عاد الى سيره مرة أخرى ، فعادت المناقشات دون أن يخمن أحد سر توقف القطار واهتزازاته ، غـير أن نظرة سريعة الى المناظر المتحركة بالخارج جعلت صاحبها يهتف :

ــ لقد ضل القطار !!

نظر القريبون الى الخارج ضاحكين : كيف يضل وهو يسير على قضيبين يحددان اتجـاهه ؟! .. لكنهم

سرعان ما بتروا ضحكاتهم مدققين : هذه مشارف العباسية تلوح واضحة دون أدنى ريب ، فكيف حدث هذا ؟! •• وشيئا فشيئا خمنوا الموقف ، فعندما توقف القطار فصلت عنه العربات التى يجلسون بها ، وعندما حدثت الارتجاجات والاهتزازات كانت هذه العربات قد ألحقت بقاطرة أخرى ، هى التى تتهادى بهم الآن على مهل فوق خط العباسية !! بينما القطار الأصلى يواصل طريقه اليومى العادى عبر الدلتا الى طنطا •• وكانت هذه هى الخدعة التى تفتق عنها ذهن صدقى باشا ، والتى انتهت بان وجد الزعماء أنفسهم على مشارف صحراء العباسية بدلا من طنطا حيث آلاف المواطنين فى انتظارهم •• وتأمل أحدهم وجوه الركاب الآخرين فى رثاء ، ها هى دعابة صدقى السخيفة تحضرهم الى مشارف صحراء العباسية بعد أن كانت وجهتهم بنها أو طنطا أو الاسكندرية •• وكان الركاب ينظرون الى الزعماء منتظرين منهم عملا ما ، تصرفا ما ، أليسوا زعماء ؟!

فتح أحدهم النافذة ناظرا الى القاهرة مناديا على السائق أن يقف ، لكن دوى الآلات كان هادرا ، وحتى

لو سمعه السائق فلن يلتفت اليهم ، ولم يكن بالعـربة كمساريا يتفاهمون معه !! •• وتناثرت عبارات الركاب محمومة غاضبة ، تسب وتلعن صدقى باشا وبطشه :

ــ يسمى نفسه القبضة الحديدية ، وهو ليس الا قفازا حريريا فى قبضة حديدية ، هى قبضة الانجليز فى معظم الأحيان ، وهى قبضة الملك فى أحيان أخرى !!

ثم سرعان ــ حسب الطبع المصرى ــ ما تم اكتشاف بعض الجوانب المضحكة فى الموضوع فانقلبت اللعنات الى نكات تسخر من رئيس الوزراء •• بينما القطـــار يتسكع بهم على شريط العباسية متجها الى « الصف » بالجيزة ، يتقدم تارة الى الأمام ثم يتراجع الى الخلف ، والراكبون لا يملكون شيئا ازاء هذه الرحلة الاجبارية •• ومع حلول موعد الغداء تقاسموا السندويتشات التى كانت مع بعض الركاب ، بينما أخـذ الزعماء يتبادلون رواية ما حدث لهم منذ أيام قليلة سابقة عندما توجهوا الى مدينة بنى سويف للاجتماع بالناس هناك ••

كانت بنى سويف هى المدينة الأولى التى فكروا فى

التوجه اليها ، ونشروا ذلك في الصـــحف •• وعندما وصلوا الى محطة المدينة ، وجدوها خالية الا من رجال البوليس ، الذين منعوا المواطنين من دخول المحطة ، ومنعوا الزعماء من مغادرة القطار منذ وصـوله وحتى حلول الظلام ، حيث تحرك عائدا بهم الى القاهرة دون أن تطأ أقدامهم أرض بنى سويف •• لكنهم لم ييأسوا وأعلنوا عن اعتزامهم التوجه الى طنطا فكان نصيبهم هذه المرة تلك الرحلة الغريبة فى هذا القطار العجيب الـذى يسرع ويبطىء ويتقدم ويتراجع كأن من يقوده سـائق معتوه لا يثبت على رأى !! •

وأدركوا أنه كان يتحتم عليهم السـفر فى كتمان وسرية حتى يفوتوا على الحكومة عرقلة جهـودهم ، وبالفعل قرروا أن يلزموا الكتمان فى خططهم التالية ، وأن يسافروا بسياراتهم الخاصة متجنبين قطارات الحـكومة العجيبة ••

ومع حلول الظلام ، وعند محطة المعسكر بين المعادى وطره انتهت الرحلة ، وأمروا بالنزول ، فافترقوا على موعد

لاحق ، حيث فوجيء أهالى بنى سويف بالزعماء بينهم ، ما هى الا أقل من الساعة حتى كانت المدينة كلها قد علمت بالخبر وتوجهت الى حيث الزعماء ، وكان مجرد تجمعهم بهذا العدد الضخم يشكل موافقة منهم على مقاطعة الانتخابات الصدقية ، وانتهى اليوم باقتياد الزعماء معتقلين الى القاهرة حيث أفرج عنهم بعد تحقيق هزلى .

وجرت الانتخابات فى يونيو ١٩٣١ حيث سيق المواطنون الى اللجان ، وحيث زورت كشوف بأسماء كان بعضها قد فارق الحياة وكان بعضها الآخر لم يولد بعد، لكن جميعهم انتخبوا مرشحى الحكومة الحديدية !! .. وفى بجاحة فائقة أعلن صدقى باشا أن الانتخابات قد سارت سيرا حسنا وفى جو هادىء ، وان حوالى ٧٠ فى المائة من عدد الناخبين قد توجهوا الى الصناديق ليعلنوا عن تأييدهم لأعضاء حزبه ، وبذلك يكون قد فاز بالأغلبية الساحقة فى مجلسى الشيوخ والنواب ..

بهذه الطريقة كون صدقى باشا مؤسساته ذات الأسماء البراقة ، التى لم تكن سوى أدوات سلطة

واستبداد .. وبذلك يكون هو رائد تزوير الانتخابات في تاريخ مصر الحديثة وله حق الريادة ، اذ كانت له سابقة مماثلة ارتكبها عام ١٩٢٥ .. وكانت سذاجة منه عندما توقع أن يصدقه الناس أو حتى الانجليز .. ولأنه لجأ الى العنف ، ولان العنف يولد العنف ، ولان المقاومة السلمية صارت غير مجدية ، فلم يجد الناس أمامهم غير الاغتيالات السياسية ، فقتل رئيس مجلس النواب المزور، وألقيت القنابل على أنصار الوزارة ومحاسيبها .. فاعتقلت الحكومة أعدادا ضخمة من المواطنين بتهمة التخريب والاعتداء على الدستور فيما سماه صدقي باشا بالحرب الأهلية في مصر «!!»

غير أن كل هذا العنف لم ينقذ صدقي باشا من الاقالة في سبتمبر ١٩٣٣ بعد أن أضاع من عمر الوطن حوالي الثلاث سنوات .. وبمجرد زوال هيلمان الحكم عنه طرد من رئاسة الحزب الذي هو منشئه والمسمى بحزب الشعب ليبقى الشعب نفسه ، الذي أجبر الملك على اعادة دستور ١٩٢٣ مرة ثانية ليوقع النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ ، والتي نصت على خروج الانجليز

من الجيش والبوليس وعلى الغــاء الامتيازات الأجنبية بحيث يخضــع الأجنبى لما يخضــع له أصحاب البلاد ، وصارت مصر عضوا بعصبة الأمم التى هى السلف المتنيح لهيئة الأمم المتحدة الحالية .. كما جاء فى المادة الثامنة من هذه المعاهدة ما يلى : « بما ان قناة السويس التى هى جزء لا يتجزأ من مصر هى فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات ، وهى أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية .. فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى قد أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القناة وسلامتها التامة ، يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القناة فى المنطقة المحددة بملحق هــذه المــادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة » ..

وبذلك تكون هذه المعاهدة قد أعطت صفة الشرعية للاحتلال البريطانى لمدن القناة .. وبسبب وجودهم فى أرض مصر أثناء الحرب العالمية الثانية تعرضت هذه المدن

للهجوم من قبل قوات المحور ، وفيما بعد سوف تصير هذه القوات شوكة فى ظهر الجيش المصرى المتجه للحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ ..

وبعد سنوات انسحب الجنود الانجليز من المدن المصرية تجنبا لاستفزاز الأهالى ، تمركزوا حول قناة السويس ، التى تكون بهذا قد بقيت مستعمرة انجليزية الى جانب ذهاب ايراداتها الى المستغلين الاوربيين ولانجلترا وفرنسا نصيب الأسد ..

١٣ -
فصـــل من مأساة الوعـــد ..
وأكثـــر مـن أكتـــوبر .

فى أكتوبر ١٩٥١ ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦ —
رغم ارادة الملك — وطالب بانسحاب الانجليز من القناة،
رفضوا بحجة أن الالغاء تم من طرف واحد ، وأيدهم
لأمريكان والفرنسيون ، وعلى الفور تحركت المظاهرات
ى كل مكان تطالب بالسلاح ، واستقال العمال
لعاملون فى ثكنات الانجليز ، وامتنع معظم
الموردين عن امدادهم بالأغذية ، وراحت الصحف تنشر
اسماء المتعاونين معهم فى قوائم سوداء .. واستمر

الكفاح حتى يناير ١٩٥٢ حيث وقعت مؤامرة حريق القاهرة ، التى اشتعلت فى ٢٦ يناير من غير أن تجد الحكومة من يوقف المشعلين ، اذ كانت قيادة الجيش والبوليس يومها فى قصر عابدين على مائدة الملك فاروق الأول ، والذى ألغى البرلمان وأقال وزارة النحاس بعد أن دفعها الى اعلان الأحكام العرفية .. وظن هو ان الحركة الوطنية قد أخمدت وانه قد صار الحاكم المطلق شأن اجداده ، وظن الانجليز انهم باقون .. وأصبح واضحا أن البلاد فى حاجة الى ثورة جديدة ، خصوصا وان عنصرا خطيرا بدأ يلعب دوره فى المنطقة له صلة وثيقة بقناة السويس ..

ففى أثناء الحرب العالمية الأولى صدر وعد بلفور بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وفيما بين الحربين الأولى والثانية كانت فرنسا قد انفردت بأرض سوريا ولبنان ، وكانت بريطانيا قد انفردت بأرض مصروالعراق وفلسطين ، فسمحت بهجرة اليهود الى فلسطين تمهيدا لقيام دولة اسرائيل .. وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت أمريكا قد عزمت على أن ترث الاستعمار القديم،

وكانت قد صارت الدولة الأقوى والأغنى فى الغـاية الأرضية ، فنقلت الصهيونية اعتمادها من بريطانيا اليها.

وفى أكتوبر ١٩٤٥ طلب الرئيس الأمريكى ترومان من الانجليز بأن يفتحوا أبواب فلسطين فورا لدخول مائة ألف مهاجر يهودى .. وبعد أقل من عام صدر قـرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ أعلنت انجلترا انسحابها منها وفى اليـوم التالى مباشرة أعلن رسميا عن قيام دولة اسرائيل !!

وقد أرادها الغرب ركيزة مستديمة له ، أوروبية الطابع بين بحر من البلاد العربية المنهكة ، وأرادها أيضا عصا غليظة يضرب بها أية حركة تحـــرر عربية ضـمانا لاستمرار سيطرته على بترول المنطقة وعلى قناة السويس ووقت انشائها لم يكن لدى العرب جيـوش ذات قوة تذكر ، وكان الجيش المصرى جيش تشريفات ينقصـــه السلاح الحديث والتدريب الجاد ، وكانت مصر نفسها ممزقة نتيجة لدكتاتورية الملك ولتعدد الحكومات غـير الدستورية ، لذلك فقد تردد رئيس الوزراء النقراشى باشا عـــام ١٩٤٨ فى الزج بالجيش المصرى الى حرب

فلسطين ، وحتى لا تكون القـــوات الانجليزية بقناة السويس وراء ظهره بمجرد عبوره الى صحراء ســيناء .. لكن الملك أمر صديقه حيدر باشـــا قائد الجيش باجتياز الحدود ــ فى نفس يوم اعلان اسرائيل ــ دون علم رئيس الوزراء ودون اقرار من البرلمان ، قاصدا من وراء ذلك استعادة بعض هيبته وصرف انظار الناس عن المشاكل الداخلية بمشكلة خارجية ، وامتصاص كرههم له حيث كانت الاغتيالات السياسية قد استفحلت بسبب عدم ثقة بعض الشباب المخلص فى القيادات ، وبسبب فقدان الأمل فى جدوى الكفاح السلمى المشروع ضد طغيان السلطة .. فكانت الحرب فرصة للملك لفرض الأحكام العرفية ولفتح أبواب المعتقلات على مصراعيها لاعتقال مئات الشرفاء .. لكن « الجيوش العـــربية » هزمت وبقيت دولة اسرائيل وتشرد مليون فلسطينى ، بينما كان غالبية المصريين فى فقر مفـــزع وقلة مستغلة تعيش عيشة مترفة وتسمن من مصائب الوطن .

وصار واضحا أن العدو ليست اسرائيل وحـــدها وانما الاحتلال الانجليزى على ضفة القناة والملك والرجعية

فى قلب القاهرة .. ولهذا كانت أول قرارات ثورة ١٩٥٢ هو انشاء جيش وطنى قوى .واصدار قانون الاصلاح الزراعى وطرد الملك واعلان الجمهورية ومصادرة أطيان أسرة محمد على واعادتها الى أصحابها من ذوى الجلاليب الزرق ، والبدء فى مشاريع التصنيع الكبرى .. وأخذ أساس الوضع الاجتماعى يستدير لصالح الأغلبية ..

وفى أكتوبر عام ١٩٥٤ وقع الرئيس جمال عبد الناصر مع الانجليز معاهدة الجلاء عن مصر « وفى حقيقة الأمر الجلاء عن مدن قناة السويس » .. وخرج الانجليز من القناة تحت ضمانة صنيعتهم اسرائيل ، وعلى أمل أن ينجحوا فى ضم مصر الى أحلافهم العسكرية ــ وهى نوع من الاستعمار المقنع ــ وهى الأحلاف التى رفضها النحاس باشا من قبل وعادت أمريكا وانجلترا تعيد عرضها على جمال عبد الناصر الذى رفضها أيضا وتسبب فى فشلها فى كافة أنحاء العالم العربى باستثناء بعض دول البترول ..

خرج الجنود الأجانب وظلت الشركة الأجنبية تنهب

دخل القناة دون مبرر .. والذى حدث أن مصر كانت في حاجة الى توفير طاقة كهربية لتشغيل المصانع الضخمة المزمع انشاؤها ، وكانت فى حاجة الى مزيد من ميـــاه النيل لرى الأرض المزمع استصلاحها .. ومن أجــل هذا كان لابد من بناء السد العالى ، وهنا كان الوقت قد حان لاعادة قناة السويس ـ أخيرا ـ الى أصحابها كى تنفق على بناء السد العالى ، فأممها الرئيس جمـــال عبد الناصر بخطابه الشهير عام ١٩٥٦ .. وهنا أيضـــا سوف يتأكد الهدف من انشاء دولة اسرائيل ..

فمنذ قيـــام ثورة ١٩٥٢ واسرائيل لا تكف عن الاعتداء على حدودنا ، ثم راحت تلتهم المناطق المنزوعة السلاح كان آخرها منطقة « العوجة » .. وكان الغرب يغرقها بالسلاح الحديث ويمنعه عن مصر وعن العرب ، فلم يجد جمال عبد الناصر من بد سوى شرائه من الاتحاد السوفييتى ، اذ كان لابد من وجود جيش قوى يحمى الحدود ويحمى منجزات البناء ، وأعلن ذلك فى سبتمبر ١٩٥٥ .. وفى الشهر التالى مبـــاشرة أعلنت أمريكا استعدادها لبناء السد العالى ، وكانت دراسة مشروعه

قد تمت على أيدى أشهر خبراء المانيا الغربية وفرنسا وأمريكا وانجلترا ، ولم تمض سوى شهور قليلة حتى عادت أمريكا تنسحب من المشروع فجأة ، بل وراحت تشهر بالاقتصاد المصرى على أنه عاجز وخرب .. وكانت أمريكا غاضبة من رفض مصر للانصياع تحت راية احلافها العسكرية .. وكان الرد المصرى بعدها بقليل هو تأميم القناة ، اذ كان الوقت قد حان لأن تكون فوائدها لبلدها بأن تنفق على بناء السد العالى ، الذى حل فيه المهندسون الروس محل الأمريكان .. ومن أجل هذا كله حدث ما سمى بالعدوان الثلاثى ..

ففى أكتوبر من نفس عام تأميم القناة تقدم جيش اسرائيل عبر سيناء المصرية بينما أساطيل انجلترا وفرنسا تطبق على القناة المصرية فى غزوة بربرية قصد منها اهدار استقلال مصر والعودة الى استلاب الغرب لدخل الملاحة .. لكن أمام مقاومة المصريين المستبسلة وتحت ضغط الظروف الدولية المعاكسة فشلت هذه الغزوة الثلاثية واندحرت ، وتحولت الى مسمار أخير فى نعش الاستعمار البريطانى .. وبهذا تكون أرض القناة قد قبرت والى

الأبد الامبراطوريتين القديمتين ، الفرنسية والانجليزية ، واللتين تحكمتا فى بلاد الأرض لعدة قرون ..

ثم عادت الملاحة الى القناة بعد أن أغلقت لأكثر من العام ، لتواصل مصر جنى ثمارها من العملات الأجنبية ، ولتؤدى دورها فى خدمة الملاحة الدولية ، حيث أثبت المصريون نجاحا مؤكدا فى ادارة القناة وأظهر المرشدون المصريون مهارة فائقة فى تسيير قوافل السفن على طول مجراها من السويس الى بورسعيد وبالعكس .. ثم راحت الهيئة المصرية تعد المشاريع لتوسيع وتعميق المجرى كى يتلاءم مع متطلبات الملاحة العصرية ومع اتجاه العالم الى بناء السفن الكبرى ذات الغاطس العميق .. ولم يوقف هذه المشاريع سوى حرب ١٩٦٧ التى سماها العدو غرورا حرب الأيام الستة !! .. وفيها قامت اسرائيل بدورها منفردة ــ ولكن بمساعدات مستترة ــ لتحتل سيناء .. بعد أن ظلت تعد لهذه الحرب منذ عام ١٩٥٧ أى لمدة عشر سنوات .. رغم هذا فان انتصارها لم يكن بسبب مهارة جنودها وعبقرية مخططيها ، وانما بسبب الاهمال والقصور الذى كان

متفشيا بين قادة جيشنا ، الذين انغمسوا فى الاهتمام بترأس نوادى كرة القدم وفى القفز الى المناصب المدنية الكبيرة ، ضاربين عرض الحائط بالكفاءة وبقيمة التخصص التى هى سمة عصرنا الشديد التركيب .. ولم يكن الذنب ذنب جنودنا أو ضباطنا ، وقد استشهد منهم ما يقرب من العشرين ألف شهيد ، تحت نار شمس يونيو وفوق رمال سيناء وبرصاص وقنابل طائرات العدو المطمئنة !!

وبعد ستة أيام كان جيش اسرائيل متمركزا على ضفة القناة الشرقية ..

- ١٤

لمحـــات من أكتـــوبر العبور ..
ومن بعض ما فعله أبناء الصمت ..
فى ســـــت ســــاعات ..

المتأمل في حالة قناة السويس يجد أن ضررها على مصر كان أضعاف فوائدها .. فمنذ افتتاحها الأول في عهد الخديوى اسماعيل عام ١٨٧٦ وايراداتها تذهب الى أصحاب الأسهم الغربيين ولمدة ثمانين عاما متتالية ، أى حتى عام ١٩٥٦ عندما أممها الرئيس جمال عبد الناصر في ذكرى ثورة يوليو .. وما هى الا شهور قليلة حتى وقع العدوان الثلاثى فتعطلت الملاحة بها لأكثر من العام ، الى أن أعيد افتتاحها مرة

ثانية بعد انسحاب جيوش المعتدين ، وبدأت مصر تأخذ دخلها ، ولكن هذا لم يدم سوى عشر سنوات فقط ، والى أن وقعت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، ومنذ هزيمتها والقناة مغلقة لستة أعوام متتالية ، والعدو يرابط على الضفة الشرقية لها ..

ستة أعوام كاملة حدثت فيها ملايين الوفيات والولادات والقبلات والاندهاشات والأكاذيب والبسمات، وسمعنا خلالها سماجات لا حصر لها ومنغصات لا آخر لها .. ودك العدو فيها مدن القناة الثلاث وأحرق معامل تكرير بترول الزيتية .. وتم فيها العديد من اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وصدرت عشرات التصريحات تستنكر الاحتلال الاسرائيلى ، وتستنكر اشتراك قواتها البحرية والجوية فى مناورات الأسطول السادس الأمريكى بالبحر الابيض المتوسط ، دون جدوى ..

ولهذا كانت البديهية التى آكدت وجودها هي أن مصائر الأمم لا تتحدد بالخطب النارية أو باللقاءات

السياسية وعناق القادة ، وانما تتحدد حسب محصلة القوى الموجودة فى واقع الحياة .. فقد صدر أكثر من قرار من مجلس الأمن ومن هيئة الأمم المتحدة يطالب اسرائيل بالانسحاب من الاراضى المحتلة ، أى من سيناء وغزة والجولان والضفة الغربية لنهر الأردن ، ولكنها لم تبال ، ولماذا ترضخ وهى تعرف أن الجيوش العربية أضعف منها ، ومقابل أى ثمن تنسحب ؟!

وكانت هذه البديهية هى التى جعلتنا ننكمش على جراحنا صامتين ، ونعمل وننتج ونعيد بناء جيشنا دون جعجعة أو طنطنة .. وظل جنودنا وضباطنا « ومعظمهم هذه المرة من المؤهلين علميا ، فالعلم هو لغة العصر والعصور التالية » يعملون فى صمت ويستوعبون السلاح الجديد وفنون الحرب الحديثة فى صمت ..

فى بداية الهزيمة كان جنود العدو يسبحون فى القنال دون خوف ، وكان جنودنا يرونهم يدنسون مياهها ولا يملكون سوى كتمان الغيظ ، وكانت أوامرهم صارمة تنحصر فى كلمتين « ضبط النفس » .. وبعدها

جاءت مرحلة الردع وكانت تعنى الرد على العدوان هـو فتح نيرانه بنيران مماثلة ، فامتنع جنوده عن السباحة فى مياه القناة وعن الظهور خارج ملاجئهم خوفا من رصاص قناصتنا العاملين فى صمت .. وعندما انهمك العدو فى بناء مواقعه الحصينة جدا التى سـماها خط بارليف ، والتى بلغت تحصيناتها حدا فاق جميع تحصينات جيوش النازى ، راحت أجهزة اعلامه تجعجع فى جميع أنحـاء العالم بأنهم قد شيدوا الخط المنيـــع الذى لا يمكن اقتحامه .. لكنهم فوجئوا بهجمات ليلية من صاعقتنا ، تغير وتقتحم وتنقض فى صمت بالسلاح الأبيض ، ثم فوجئوا بهذه الهجمات تقتحمهم نهارا تحت ضـــوء الشمس ، وبالمدفعية تصب نيرانها عليهم لساعات طويلة فيما سمى بحرب الاستنزاف ، ففقدوا أعصابهم ، وأخذت طائراتهم الفانتوم تغير على المواقع المدنية على عمـال مصانع أبى زعبل ، وعلى أطفال مدرســة بحر البقر الابتدائية .. وعلى الناس فى سوريا ولبنان والأردن ..

وفى خلال هذه السنوات الست مضت خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ ، وصعد الانسان الى القمر لأول مرة

حيث وصفه رائد الفضاء أنه كشاطىء رملى قذر عليه
آثار أقدام وتنتشر فوقه الفوهات البركانية والجبال
الوعرة ، وفيها واصل عالم المصريات « ايمرى » تنقيبه
ربما للموسم السادس على التوالى فى محاولة لاكتشاف
مقبرة « ايمحوتب » الذى رفعه المصريون القدماء
لنبوغه فى العلم والطب الى مرتبة الآلهة مع أنه لم يكن
من نسل الملوك الفراعنة ..

وخلال هذه الأعوام الستة أيضا زاد الضغط على
أعصاب الناس حتى قارب الانسان أن يصاب بضغط الدم
أو بتصلب الشرايين ، وزاد نفاذ الصبر وعلى الأخص عند
الشباب والطلبة ، كما استفاد بعض الانتهازيين من ظروف
الركود وأثروا من وراء ذلك ، وانتشرت الأفلام الرديئة
والفجة ، وحدثت الاشتباكات العنيفة على جبهات القناة
والجولان وربما الأردن ، وقامت دولة جديدة لم تكن
موجودة من قبل سميت بنجالاديش ، انتشرت موضة
الملابس القصيرة جدا ثم موضة الملابس الطويلة جدا ،
وسمعت آلاف النكت ، واكتشف عالم ايطالى أن الحب
هو خير عقار ضد تصلب الشرايين ..

ستة أعوام حدثت فيها ملايين الأحـــداث الهامة والصغيرة •• والعدو يزداد غرورا ويعلن أنه أقــوى قوة حربية فى الشرق الأوسط ، وانه لن تقوم قائمة لأية دولة عربية وخاصة مصر أكبرها •• الى أن جاءت الساعة الثانية من بعد ظهر يوم٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ عندما اخترقت أكثر من ٢٢٠ طائرة نفاثة مصرية سماء القناة لتدك جميع مراكز قيادة العدو فى سيناء المصرية ، بما فيها مراكــز السيطرة على ادارة الطيران والدفاع الجوى والشوشرة، ولتدك معها غروره وغطرسته ووهمه الذى صدقه من كثرة الترديد والقائل بأن جيشه لا يقهر •• ولتكسر لدينا حاجز الخوف والهزيمة والمهانة والضياع الذى عانت منه أمتنا العربية ومصرنا الغالية •• ولتندفع فى أعقابها جموع هادرة من جنود مصر الى قناة السويس •• حيث انتعشت المياه وهى تستقبلهم فى مئات القوارب ، وهم مندفعين بقوة وبأس مقتحمين عابرين الى الضــفة الشرقية من قناة السويس العتيدة ••

وما أن وطأوها حتى استداروا يقتحمون دشم العدو المنيعة ويحطمون دباباته التى حاولت التدخل •• وما

هى الا ساعات فقط حتى كانوا قد قضوا على اسطورة خط بارليف الذى لا يقتحم بأن اقتحموه ..

وهكذا كان كلام الأبطال من أبناء الصمت بالفعل وبالعمل .. وهكذا كان الفرد منهم يواجه بصاروخه مدرعة حديدية للعدو أو دبابة عاتية له ويدمرها فى أقل من الثانية لتتحول الى مسخ من الحديد المنصهر ، وهكذا كان زميله يتصدى بصاروخ من فصيلة « سام » لطائرات العدو ويسقطها حتى فقدت اسرائيل آمهر طياريها فى الساعات الأولى للتحرير المصرى ..

وهكذا فى ست ساعات فقط ـ وبعد صمت ست سنوات ـ تمكن أبناء الصمت من دحر هزيمة الأيام الستة ..

وفى الذكرى الثامنة لهزيمة ١٩٦٧ ـ أى فى يونيو ١٩٧٥ ـ افتتح الرئيس أنور السادات القناة للملاحة لدولية للمرة الثالثة فى تاريخها الدرامى الأليم ، لتستقبل سفن العالم بمرشدين مصريين وبادارة مصرية ..

١٥ -

الثـــــراء والأمن فى الشرق ..
العربى .. وملاحظات ختامية ..

بذلك تبقى اسرائيل هى أكبر خطر معاصر يواجه قناة السويس .. وقد خسرت مصر منذ ١٩٦٧ ملايين الجنيهات من بترول سيناء ومن دخل القناة .. ثم انفقت الملايين فى تطهيرها وفى اعادة بناء مدنها .. وكادت قوافل النفط العالمية أن تتحول الى المحيط الهندى هاجرة البحر الأبيض الذى تقع عليه موانينا ..

لذلك يصبح واضحا الآن ــ وبديهيا ــ ان حماية القناة تستدعى تعمير سيناء وتسليحها وتقويتها ، فحدود

مصر تقع هناك عند آخر سيناء وليس عند مدن القنـــاة •• ومن العار أن تترك شبه جزيرة سيناء التـــاريخية لآلاف السنين صحراء قاحلة ، بينما قدر من مياه النيل يمكن أن يحولها الى مصدر رزق وثروة زراعية لا حد لهـــا ••

والطريق الوحيد لتقوية مصر والعالم العـــــربى هو تحويل الكم العربى الشهير الى كيف فعال ، وذلك لا يكون الا عن طريق العلم والدأب فى سبيله ، وعن طريق تسخير المال العربى من أجل التصنيع والتسليح ؛ وايجاد مناخ ثقافى مستنير ••

كما يجب ان يكون واضحا لدى أثرياء العرب ــ من الآن وعلى الدوام ــ أن الثراء فى هذه المنطقة لايمكن ان يتجزأ كما ان أمنها لايمكن أن يتجزأ •• بمعنى أوضح فانه مادامت مصر تقدم دماء شبابها وجهدهم وعملهم دفاعا عن المنطقة كلها ، فان المال العربى ــ والذى تضاعف الى ارقام مذهلة بفضل حرب التحرير فى اكتوبر ــ هذا المال يجب ان يعم على الجميع من أجل مزيد من القوة •••

فان كانت مصر قوية فهم فى أمان ،وان كانت مصر ضعيفة أو منهكة فهم عرضة لاعتداءات العدو وينكل بهم كما يشاء دون رادع ، والعدو يدعمه المال الامريكى ابتداء من رغيف الخبز والزبدة حتى الصاروخ والطائرات الفانتوم مرورا بكافة متطلبات الحياة . •

ولنتذكر دائما أن ذئاب الغابة الارضية مازالت موجودة وان كانت قد تنكرت فى أثواب أكثر خداعا،

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٣٧٩٦

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ١١٦ ٦

● هذا الكتاب

حكايات سياسية حول قناة السويس تشمل الملوك والبنوك والباشوات وأصحاب الجلاليب الزرقاء .. وذلك منذ افتتاحها الأول أيام الخديوى اسماعيل وحتى اعادة افتتاحها الأخير فى ٥ يونيو ١٩٧٥

● الكتاب القادم

الانسان والميكروب والزرا

د . محمد صابر

١٠ قروش